المبحث السادس
أهمية التربية والتعليم في النهوض الحضاري

أدرك المشرفون على عملية التغيير وفقه النهوض أن عز هذه الأمة وقوتها في تمسكها بدينها وعملها بكتاب ربها وسنة نبيها وأن الجيل الأول من سلف هذه الأمة ما انتصر على أعدائهم إلا بقوة العقيدة، وأن النصر والتأييد والتمكين لهذه الأمة مقرون بالالتزام بعقيدة التوحيد الخالصة، والعمل بمقتضاها، وأن هذه الأمة تكون هدفاً للسهام وطعمة لسيوف الأعداء بمجرد الزيغ عن هذه العقيدة، والانحراف عن هذا المنهج وأن الهزائم التي حلت بالمسلمين أمام حملات الصليبيين كانت ثمرة طبيعية ونتيجة حتمية للانحراف العقائدي والفساد الفكري الذي أصاب الأمة [١]، وقد ألهم الله قادة الأمة من أمثال نور الدين محمود إدراك دور العقيدة الصحيحة في صناعة النصر وأن الأمة بدونها تتحول إلى قطيع من الأغنام لا تقوى على شيء ولذلك فإن أول ما بدأت به عملية التغيير والإصلاح والتجديد هو إعادة بناء العقيدة في النفوس، وإعادة صياغة الإنسان المسلم على التوحيد الخالص، بتجديد العقيدة في نفوس الناس وإزالة كل ما علق بالنفوس من بدع وعقائد فاسدة ولذلك راحوا يواجهون التحديات الباطنية في إفساد العقائد الإسلامية بنشر العقيدة الصحيحة عن طريق مؤسسات تجسد العقيدة في النفوس وواقع الحياة اليومية عن طريق التعليم الإسلامي النقي في عدد من المدارس والمساجد تم إنشاؤها وإعدادها لهذا الغرض قام بالتدريس فيها صفوة من علماء الأمة وخيرة مفكريها [٢].

وقد كانت بداية حركة الإصلاح والتجديد على يد السلاجقة السنة الذين زحفوا على بغداد واستنقذوا الخليفة العباسي من الأسر والذل الفاطمي الرافضي الشيعي بعد الانقلاب الذي دبرته الدولة الفاطمية على يد القائد العسكري البساسيري الذي تشيع وترفض واعتنق المذهب الإسماعيلي، وقد هدى الله قادة تلك الدولة السلجوقية السنية إلى أن السيوف تفل السيوف، وأن الحجة لا تقرع إلا بالحجة، وأن الأفكار والعقائد لابد من غرسها عن طريق التعليم والتربية والتهذيب لا بالسيف والسنان خصوصاً وأن مذهب أهل السنة والجماعة هو مذهب الحق ودين الله تعالى الذي بعث به رسوله، فأنشاوا لهذا الغرض ما عرف باسم المدارس النظامية نسبة إلى الوزير العظيم نظام الملك وقد تحدثت عن سيرة نظام الملك والمدارس النظامية في كتابي دولة السلاجقة والمشروع الإسلامي لمقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي وإلى جانب نظام الملك كان هناك عشرات من الذين تولوا الإدارة والجيش والقضاء والحسبة وآخرون تولوا القيام على المدارس النظامية كالإمام الجويني وأبي إسحاق الشيرازي، وأبي القاسم القشيري والإمام الغزالي وغيرهم ولقد واجهت الدولة السلجوقية ورجالها العظام الخطر الفاطمي الباطني الذي انتشر في مختلف البقاع الإسلامية، لقد كانت المدارس النظامية والحركة المباركة التي قادها السلاطين السلاجقة من أمثال ألب أرسلان -

(١) لا طريق غير الجهاد لتحرير القدس ص ٣٢٠.
(٢) المصدر نفسه ص ٣٢١.

مع العلماء لمواجهة التحدي الفاطمي الرافضي الباطني أطيب الأثر في وضع الأمة على الطريق الصحيح الذي سار عليه من بعدهم رجال من القادة السياسيين والعلماء العاملين المخلصين، فكانت لتلك الشجرة الطيبة الكثير من الغصون والثمار التي طابت وأينعت وامتدت ونمت وتفرعت حتى عم خيرها الجميع [١]، وقد تحدثت عن حركة الإصلاح التي قام بها الإمام الغزالي في كتابي عن دولة السلاحقة وعن جهوده الفذة في مقارعة التشيع الرافضي الباطني وسيأتي الحديث بإذن الله عن المدرسة القادرية وشيخها عبد القادر الجيلاني وجهوده في الإحياء السني ودوره في نهضة الأمة وترشيد التصوف السني، فقد لعبت المدرسة القادرية دوراً مهماً جداً في حركة الإصلاح والتجديد والتغيير الاجتماعي وتهيئة الأمة للجهاد في سبيل الله. وعندما جاء نور الدين للحكم استفاد من الجهود العلمية والتربوية التي سبقته وأدركت دولته أن التعليم هو الدعامة الإساسية في بناء الشخصية المتكاملة من جميع النواحي العقائدية، والثقافية والفكرية... إلخ واعتبرت الإنسان الكنز الذي لا يقدر بأي ثمن، فجعلته مدار اهتمامها، وقطب الرحى في تفكيرها فعمدت إلى بناء المؤسسات التعليمية من مدارس ودور القرآن والحديث، وأحيت رسالة المسجد ليسهم في عملية البناء والتصحيح الجديدة، وتوجيه وتوعية الأمة وتعبئتها تعبئة عامة شاملة لمواجهة الأخطار ومجابهة التحديات الداخلية الباطنية والخارجية الصليبية، وكونت مجلساً عاماً يشرف على العملية التعليمية والصياغة التربوية يضم أهل الحل والعقد وهيئة كبار العلماء العاملين المخلصين والقادة العسكريين والفقهاء والشيوخ المستنيرين وكان نور الدين أحد أعضاء هذا المجلس الأعلى الذي يشرف على التخطيط العام والشامل، وكان يجلس مع العلماء والشيوخ يتدارسون الأمور إلى ما يحقق المصلحة الإسلامية [٢]، ورسم هذا المجلس الأعلى للتخطيط والتنسيق بين السياسات العامة الواجب اتباعها نحو إعداد الأمة الإسلامية كلها إعداداً جديداً، وبنائها بناء سليما على طريقة السلف الصالح، فقرروا ضرورة تأسيس مئات المدارس ونشر التعليم الإسلامي في جميع أنحاء البلاد، كما قرروا إقامة مئات المساجد للقيام بواجب التزكية والتحلية، بالفضائل والتخلية من الرذائل، واستقدموا آلاف العلماء، والمربين المشهورين للقيام بواجب التدريس في المدارس والتوجيه في المساجد وكانوا من خريجي المدرستين الغزالية والقادرية [٣] ولم يكن التعليم لدى دولة نور الدين مجرد نشاط أكاديمي يستهدف توفير الموظفين والمهنيين، وإنما كان بالدرجة الأولى نشاطاً عقائدياً استهدف إعادة صياغة الجماهير المسلمة بما يتفق وأهداف الإسلام والحاجات القائمة [٤]. وكانت الصفة الجماعية للنشاط التعليمي الذي رافق الدولة الزنكية تبدو واضحة من تباري الوزراء القادة والأغنياء والرجال والنساء في إنفاق أموالهم في بناء المدارس والمؤسسات التعليمية وتوفير الفرصة لجميع أفراد الأمة لدخولها والاستفادة [٥] منها فقد أعطت الخطة الزنكية أهمية خاصة لتعليم كافة المسلمين من عمال وفلاحين

(١) لا طريق إلا الجهاد ص ٣٢٢.
(٢) لا طريق غير الجهاد ص ٣٣٤.
(٣) المصدر نفسه ص ٣٣٤.
(٤) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٢٥٧.
(٥) المصدر نفسه ص ٢٥٨، ٢٥٩.

ومزارعين من الكبار والصغار والرجال والنساء، وعملت الخطة على تعليم الجميع أصول العقيدة وأركان الدين والقيم والمبادئ الإسلامية، كما عمدت الخطة الحكيمة على تعرية المذاهب الهدّامة، والفرق الضالة من إسماعيلية باطنية، وشيعية إمامية، وشعوبية، وأبانت عن خطرها وضررها على النفس والمجتمع والأمة وأن لا خروج من المحنة، ولا خلاص من الضياع إلا بالعودة إلى روح الدين النقية الطاهرة في صورتها الأولى التي كان عليها سلف هذه الأمة دون زيادة أو نقصان، ودون تعقيدات فلسفية ومجادلات كلامية، لا طائل من ورائها ولا خير فيها ولا في مروجيها. لقد التزمت الدولة الزنكية بالإسلام عقيدة وعملاً ومنهجاً والتزمت بالدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة للجميع، فأصلحت ما يمكن إصلاحه من أصحاب الاتجاهات والفلسفات كالصوفية المنحرفةِ التي استطاعت الدولة الزنكية أن تنقيها مما علق فيها من أتباع الفكر الإسماعيلي الباطني، فأقامت لشيوخها الزّوايا والأربطة وأنفقت عليهم الأموال، وأمدتهم بالعطايا والهبات، وأخرجت التصوف من أسر الفكر الباطني وبذلك أصبحت المؤسسات الصوفية تؤدي دورها - التربوي ونشر السلوك الإسلامي وفق منهج أهل السنة والجماعة إلى جانب المدارس والمساجد في التوجيه والإرشاد والتعليم والتهذيب حسب الخطة العامة للدولة وتحت إشراف المجلس التعليمي الأعلى. لقد وجه التعليم الإسلامي عناية خاصة لإعداد الأمة كلها للجهاد بكافة أنواعه من الإعداد المادي والمعنوي وتربية النفوس ومجاهدتها في ذات الله، ومجاهدة الشيطان والجهاد بالمال والنفس، والتعبئة الروحية العالية، وتربية الإرادة القتالية عند جميع أفراد الأمة دون أن يقتصر ذلك على طائفة دون أخرى بالإضافة إلى طائفة مختصة عنت الدولة بإعدادها إعداداً قتالياً خالصاً، وتدريبها تدريباً عسكرياً متميزاً يجعلها تتفوق على ما عند الأعداء [١].

أولاً: فئات المدرسين في الدولة الزنكية:

١ – معلمو الكتاتيب:

الاسم الشائع الذي كان يطلق على معلم الصبيان في العهد الزنكي هو (المعلم) أو (المؤدب). ومعلم الكتاب في ذلك العهد يماثل معلم المرحلة الابتدائية في عهدنا الحاضر، من حيث أنه يتولى تعليم الأطفال العلوم الأساسية، ويشرف على تربيتهم وتوجيههم، وتأهيلهم إلى المرحلة الأعلى وقد اهتم حكام العهد الزنكي بهذه المرحلة من التعليم اهتماماً خاصاً وحظي معلمو هذه المرحلة بمكانة عالية لديهم، فوفّروا لهم كافة سبل العيش المريح للقيام بمهمتهم على أفضل وجه وأداء رسالتهم المهمّة في توجيه اللبنة الأولى في التعليم على النهج السليم الذي رسمته تلك الدولة، هو إعدادهم مُنذ صغرهم ليتخرجوا صحيحي العقيدة سليمي الذهن [٢] متأثرين بذلك التوجه الإسلامي ليتخذوا مواقعهم في المجتمع، وليقوموا بالأعمال المنوطة بهم مستقبلاً على التوجه السليم والسياسة المرسومة [٣]. وكان من أهم ما يتطلبه تعليم الصبيان في المعلم أن يكون حافظاً لكتاب الله ملماً

(١) لا طريق غير الجهاد ص ٣٣٥.
(٢) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ١٦٦.
(٣) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ١٦٦.

ببعض علوم اللغة وأصول الحساب والخط [١] وكان يشترط فيمن يقوم بتعليم الصبيان شروط خلقية كثيرة ذلك لأنه كلما زادت الخصال المحمودة في المؤدب زاد الصبي به تجملاً ورفعة وفي هذا الصدد يقول الإمام الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥هـ/١١١٢م: إن صلاح التلميذ بصلاح معلمه، فإن أعينهم إليه ناظره، وآذانهم إليه مصغية، فما استحسنه فهو عندهم الحسن وما استقبحه فهو القبيح [٢]، كما اشترط المربون في المعلم أن يكون عادلاً بين الصبيان، وأن يكونوا عنده بالمنزلة سواء لا تفريق بينهم فابن الفقير وابن الغني على حد سواء في التربية والتعليم [٣]. هذا إلى جانب كونه من أهل التقوى والورع والعفة واستحب المربون في معلم الكتّاب أن يكون كبير السن [٤] وقد اشتهر بالتأديب في العهد الزنكي الشيخ علي بن منصور السُّرُوجي المتوفى سنة ٥٧٢هـ/١١٧٦م [٥] وكان قد ندبه الملك عماد الدين زنكي لتربية أولاده وتعليمهم، وقد اشتهر السروجي ببراعته في الأدب والشعر وحسن الخط [٦]. ولقد تمتع معلمو الكتاتيب في ذلك العهد بمركز مالي جيد في الكتاتيب الموقوفة إذ وفر لهم الواقفون رواتب شهرية تُصرف لهم من إيراد الوقف [٧]، كما ذكر أبو شامة عن نور الدين أنه بنى في بلاده الكثير من الكتاتيب وأجرى على المعلمين والصبيان رواتب وافرة[٨]، وقد دفع هذا التشجيع المادي والمعنوي الكثير من المعلمين إلى الإقبال على التعليم، بطمأنينة وراحة بال [٩].

٢ – المدرسون:

إن نظام التعليم المتبع في العهد الزنكي لا يقل شأنا عن نظام المدارس في العصر الحاضر، فإن النظام المتبع آنذاك هو أن يكون لكل مدرسة عدد من المدرسين يختص كل واحد منهم بتدريس مادة أو أكثر، ويشرف عليهم شيخ يسمى ناظر المدرسة ويشترط أن يكون الناظر من خيار المدرسين وأشهرهم ومن الذين بلغوا درجة عالية من النضج العلمي، والقدرة العالية في مجال التأليف والتدريس وقد عني الزنكيون ومن سار على نهجهم في إنشاء المدارس ودور التعليم المختلفة باختيار العلماء الأفذاذ للتدريس في مراكزهم وحرصوا على استجلاب من أثر عنه العلم الوافر، والسمعة الحسنة بين العلماء وطلاب العلم، كما حرصوا أن يكون المدرس سليم العقيدة حتى يتوافق مع التوجيه الديني الشامل للدولة [١٠] وكان المدرسون في العهد الزنكي يتقاضون رواتب، أو معاليم تصرف لهم من الأوقاف التي كانت توقف على المدرسة، وكانت تلك الأجور أو المعاليم تتأثر

(١) مدخل الشرع الشريف على المذاهب الأربعة (٣١٧/٢).
(٢) إحياء علوم الدين (٦٣/١، ٦٤).
(٣) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ١٦٧.
(٤) المصدر نفسه ص ١٦٧.
(٥) مرآة الزمان نقلاً عن الحياة العلمية ص١٦٨.
(٦) المصدر نفسه ص ١٦٨.
(٧) المصدر نفسه ص ١٦٩.
(٨) كتاب الروضتين نقلا عن الحياة العلمية ص ١٦٩.
(٩) الحياة العلمية ص ١٦٩.
(١٠) الحياة العلمية ص ١٧٠.

بظروف مقدار الوقف على المدرسة وما يدرّه شهرياً أو سنوياً وكان هناك من المدرسين من يأنفون من أخذ ما يُخصص لهم من تلك الأوقاف فقد رفض القاسم ابن الحافظ علي بن الحسن بن عساكر المتوفى سنة ٦٠٠هـ (١٢٠٣م) [١] وكان مدرساً بدار الحديث النورية بدمشق، أن يتناول من معلومه شيئاً، فقد تنازل عنه لمن يتردد عليه من الطلبة [٢]، وكان يحق للمدرس أن يستنيب من يقوم بالتدريس مكانه في إحدى المدارس، ومن هنا ظهر منصب (نائب المدرس) وهو أعلى من رتبة المعيد، وأقل من رتبة المدرس ومن ذلك أن القاضي شرف الدين بن أبي عصرون درس بالمدرسة الأمينية بدمشق [٣]، وأناب عنه في بعض وقته الفقيه أبا الفضائل الدمشقي [٤]، المتوفى سنة ٥٦١هـ/١١٦٥م [٥].

٣ – المعيدون:

من الواضح أن نظام الإعادة الذي نجده منتشراً في جامعتنا في الوقت الحاضر لم يكن وليد نُظم التعليم الحديثة فقد سبقتها المدارس الإسلامية الأولى إلى استعمال هذا النظام، ولم تظهر وظيفة المعيد في تاريخ التعليم عند المسلمين إلا مع ظهور المدارس وتطور وظائفها في منتصف القرن الخامس الهجري [٦].

ثانياً: فئات الطلاب:

١ – طلاب المرحلة الأولى:

اهتم الحكام الزنكيون وبعض الموسرين في الدولة الزنكية بإنشاء الكتاتيب لتعليم صغار المسلمين القرآن الكريم، ومبادئ الدين الإسلامي، وطرقاً من العلوم الأولية البسيطة مثل: الكتابة، والحساب، وما يُستحسن من الأشعار وقد ذكر ابن العربي الذي زار بلاد الشام في بداية القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) أن: للقوم في التعليم سيرة بديعة، وهو أن الصغير منهم إذ عقل، بعثوه إلى المكتب [٧] وقد حدد ابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧هـ/١٢٠١م بقوله: ومتى اعتدل المزاج وتكامل العقل، أوجب ذلك يقظة الصبي، فإذا بلغ خمس سنين أخذ يحفظ العلم [٨] وأما المدة التي كان يقضيها الطفل في الكُتّاب فهي أيضاً تختلف باختلاف استعداد الطفل ومدى قابليته للتعلم، وإمكانياته في الانتقال إلى المرحلة التعليمية التالية على أن هناك بعض الإشارات التي تحدد مدة الدراسة بالكتّاب بسن البلوغ فقد أشارت بعض المصادر إلى أن الصبي إذا بلغ سن البلوغ ترك

(١) المصدر نفسه ص ١٧٦.
(٢) المصدر نفسه ص ١٧٦.
(٣) الدارس (١٧٨/١) الحياة العلمية ص ١٧٨.
(٤) طبقات الشافعية (١٨٦/٧) الحياة العلمية ص ١٧٨.
(٥) الحياة العلمية ص ١٧٨.
(٦) المصدر نفسه ص ١٧٩.
(٧) أحكام القرآن (١٨٩٥/٤) الحياة الزنكية ص ١٩٣.
(٨) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ١٩٣.

المكتب وهذه تتراوح ما بين الثانية عشر والخامسة عشر [١] وكانت أيام التعليم في الغالب خمسة أيام ونصف اليوم: السبت والأحد والاثنين والثلاثاء، والأربعاء: وصبحة الخميس حيث كان بقية يوم الخميس، وطوال الجمعة عطلة الراحة، بالإضافة إلى أيام عيد الفطر الثلاثة وأيام عيد الأضحى الخمسة وبعض المناسبات العامة [٢] وأما من حيث منهج الدراسة في المرحلة الأولى فتعلم أقرب المصادر للعهد الزنكي التي توضح منهج التعليم في هذه المرحلة هو كتابة نهاية الرتبة في طلب الحسبة لعبد الرحمن بن نصر الشيزري المتوفى سنة ٥٨٩هـ/١١٩٣م الذي وصف حال تعليم الصبيان في ذلك العهد، وما ينبغي للمعلم اتخاذه تجاه تعليمهم وطريقته ومن ذلك قوله: وأول ما ينبغي للمؤدب أن يعلم الصبي السور القصار من القرآن بعد حذقه بمعرفة الحروف وضبطها بالشكل، ويُدرّجه في ذلك حتى يألفه طبعه ثم يعرفه عقائد أهل السنة والجماعة، ثم أصول الحساب، وما يستحسن من المراسلات والأشعار دون سخيفها ومسترذلها [٣] ولم تقتصر الحياة التعليمية في الكتاتيب على تعليم الصبية الكتابة والقراءة وتحفيظهم القرآن فحسب، بل تعداه إلى أن يقوم المعلم بتأديب الصبيان وتعويدهم الآداب الحسنة [٤] وقد شبه الإمام الغزالي المعلم الذي يُربي الصبية ويهديهم الأخلاق الفاضلة بالرفق واللين، ويبعدهم من السقوط بالمهالك والشرور بالفلاّح الذي يقطع الشوك ويخرج النباتات الأجنبية من بين الزرع ليحسن نباته ويكمل ريعه [٥]، وقد تعددت وسائل التحصيل وأساليب التعليم في الكتاتيب على النحو الآتي: في السنوات الأولى من هذه المرحلة يهتم المؤدب بتعليم الأطفال السور القصار من القرآن الكريم وكانت وسيلته في ذلك أسلوب التلقين، بمعنى أن المعلم كان يقرأ وعلى الصبي أن يكرر ما يقرأه معلمه من فقرات إلى أن يتم حفظها وهكذا يستمر معه وقد أكد ابن جُبير اشتهار هذه الطريقة في البلاد الزنكية التي زارها بقوله: وتعليم الصبيان للقرآن بهذه البلاد المشرقية كلها إنما هو تلقين [٦] ويذكر ابن جبير عند الحديث عن تعليم الصبيان في دمشق أن سور القرآن لم تستعمل في تعليم الأطفال الكتابة، وإنما استعملت أبيات من الشعر لهذا الغرض، وأن تعليم القرآن والكتابة لا يقوم بهما مدرس واحد وإنما يخصص معلم لكل منهما على حدة، فإذا فرغ الصبي من التلقين التحق بالكُتاب الخاص بتعليم الخط ويستصوب ابن جُبير هذه الطريقة إذ يرى فيها إتقاناً للخط لأن المعلم له لا ينشغل بغيره فهو يستفرغ جهده في تعليم الخط، فيبرع الطفل في ذلك [٧].

أما طريقة تدريس الشعر فكانت تتلخص في أن يختار المعلم للأطفال الأشعار السهلة في العبارة واللغة، كي يسهل حفظها وفهمها، كما يراعي في اختياره ما قيل من الأشعار الحسنة والنبيلة

(١) المصدر نفسه ص ١٩٥.
(٢) التربية والتعليم في الإسلام ص ٧٨ محمد أسعد طلس.
(٣) نهاية الرتبة في طلب الحسبة ص ١٠٣.
(٤) المصدر نفسه.
(٥) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ١٩٧.
(٦) كتاب أدب المعلمين ص ٧٦.
(٧) الرحلة ص ٢٤٥ الحياة العلمية ص ١٩٩.

دون السخيف والرذيل منها وكان الطفل يقوم بتكرار هذه الأشعار حتى يتم حفظها [١] هذه هي أهم وسائل التحصيل وأساليب التعليم في تلك المرحلة المبدئية من التعليم وكانت تتميز بالبساطة، والتدرج في المعلومات ما أمكن والحرص على تربية الصبية خلقيا إلى جانب تحصيلهم العلمي [٢].

٢ – طلاب المرحلة العليا:

يُطلق على هذه الفئة من الطلبة في بعض الأحيان لقب (الفقهاء) وقد غلب إطلاق هذا اللقب في العهد الزنكي على طلاب المدارس [٣]، ويمكن تصنيف هذا النوع من الطلبة إلى صنفين: طلبة عارضين، وآخرين منتظمين، فالصنف الأول يشمل أعداداً كبيرة من أصحاب الحرف والعمّال وغيرهم ممن يحضر الدروس بين حين وآخر، ولاسيما مجالس الوعظ والإملاء وحلق التعليم العامة، غير أنهم لا يواصلون دراستهم ولا يواظبون على الحضور، وهؤلاء يمثلون أضعاف أعداد الطلاب المنتظمين، أما الصنف الآخر فهم الطلبة المنتظمون، وكانوا يقضون شطراً كبيراً من حياتهم في طلب العلم وحده، ولكن ذلك لا يمنع اشتغالهم بكسب الرزق [٤] وكانت المساجد تقوم بالتدريس ولا يشترط في من يريد التعلم عدد معين ويختلف الوضع بالنسبة للمدارس، إذ كان يجلس أمام المدرس فيها عدد معين من الطلاب لا يصح تجاوزه في الغالب، ثم إن هذا العدد قليل جداً إذا قيس بأعداد طلاب الحلق في المساجد وكان مما جرت عليه العادة في المدارس أن يعين منشئ المدرسة أو واقفها مدرساً لها، ويُحدد في الوقت نفسه عدد الطلاب الذين يسمح لهم الالتحاق بها كما حصل في المدرسة النورية بالموصل حيث حدد واقفها نور الدين أرسلان شاه عدد الطلاب بستين طالباً من فقهاء الشافعية [٥]، وكذلك في المدرسة العصرونية بدمشق والتي شرط فيها واقفها ألا يزيد عدد طلبتها على عشرين طالباً من الشافعية وغيرهم[٦]. وكان طلاب العلم يحصلون على مرتبات ونفقات تحصل في الغالب من موارد الوقف المخصص للحلقة أو المدرسة وقد اشتهرت بعض مدارس العهد الزنكي بوفرة ما يناله منسوبوها من الأموال، والمأكولات والملابس، والهدايا في المناسبات، كما كانت عليه المدرسة العُزية بالموصل والحلاوية بحلب والنورية الكبرى في دمشق [٧] وغالباً ما يزدحم الطلبة على مثل هذه المدارس لغني مخصصاتها [٨]. كما حرص واقفو المدارس في العهد الزنكي على توفير كافة احتياجات الطلبة الدارسين فيها وبالأخص المسكن الملائم لهم كي يجد الطلبة الغرباء، والفقراء المناخ المناسب لتلقي العلم، فكأن من مكملات المدارس إنشاء مرافق تُلحق بها تخصّص لسكنى الطلبة الغرباء والفقراء، وقد حدثنا الرحالة الأندلسي ابن جُبير عما شاهده

(١) الحياة العلمية ص ٢٠٠.
(٢) المصدر نفسه ص ٢٠٠.
(٣) الحياة العلمية ص ٢٠١.
(٤) المصدر نفسه ص ٢٠١.
(٥) المصدر نفسه ص ٢٠٢.
(٦) المصدر نفسه ص ٢٠٢.
(٧) المصدر نفسه ص ٢٠٤.
(٨) المصدر نفسه ص ٢٠٤.

في دمشق من التسهيلات المغرية لطلاب العلم، ومنها هذه المرافق فقال: ومرافق الغرباء بهذه البلدة أكثر من أن يأخذها الإحصاء ولاسيما لحفاظ كتاب الله عز وجل، والمنتمين للطلب... وهذه البلاد المشرقية كلها على هذا الرسم، لكن الاحتفال بهذه البلدة أكثر والاتساع أوجد. فمن شاء الفلاح من نشأة مغربنا فليرحل إلى هذه البلاد ويتغرب في طلب العلم، فيجد الأمور المُعينات كثيرة، فأولها فراغ البال من أمر المعيشة، وهو أكبر الأعوان وأهمّها [١] وقد حرص المربون في العهد الزنكي وبعده أن يسدوا الوصايا والتوجيهات التربوية للطلبة أثناء تلقيهم العلم وكان من أهم تلك الوصايا والتوجيهات ما يأتي:

- أن يخلص الطالب نيته في طلب العلم وذلك بأن يقصد بعلمه وجه الله تعالى والعمل بما يعلم وأن يحذر أن يكون هدفه الأصلي من علمه طلب الرئاسة والمال والجاه [٢].

_ أن يحرص الطالب على وقته بأن يبادر باغتنام فرصة الشباب لاكتساب العلم، وأن يعلم بأن كل ساعة تمضي من عمره لا بدل، ولا عوض، لذلك يجب على طالب العلم أن يقلل من الانشغال عن الدراسة قدر الإمكان [٣].

_ كما ينبغي لطالب العلم أن يصبر ويثبت على أستاذ وعلى كتاب، حتى لا يتركه أبتر، وعلى فن حتى لا يشتغل بفن آخر قبل أن يتُقن الأول، وعلى بلد حتى لا ينتقل إلى بلد آخر من غير ضرورة، فإن ذلك كله، يفرق الأمور، ويشغل القلب، ويُضيع الأوقات ويؤذي المعلم [٤].

_ وعلى الطالب أن يلتزم بالورع في جميع شؤونه، وأن يتحرى الحلال في طعامه وشرابه ولباسه ومسكنه، وفي جميع ما يحتاج إليه... وذلك ليستنير قلبه ويصلح لقبول العلم ونوره والنفع به [٥].

وفيما يتصل بالعلاقة بين الطالب وأستاذه، فإن هناك جملة آداب كفلت للمدرس حق الاحترام والطاعة من طلابه إذ كان على الطالب أن يُوفيه تلك الحقوق كاملة من غير نقص ويمكن اختصارها في الأمور الآتية:

_ من آداب الطالب مع أستاذه إذا دخل عليه أن يكون كامل الهيئة متطهر البدن والثياب، يستأذنه في الدخول وكذلك في الانصراف وأن يكون دخوله لقاعة الدرس قبل حضور المدرس [٦].

_ أن يجلس بين يدي أستاذه بأدب مصغياً إليه بانتباه، وألا يتشاغل أثناء الدرس ولا يكثر حركة يديه، ولا رجليه ولا يعبث بشيء، أو يكثر الكلام بغير حاجة إلى غير ذلك من الأخلاق الذميمة[٧].

---

(١) الرحلة ص ٢٢٧ - ٢٢٨ الحياة العلمية ص ٢٠٥.
(٢) تذكرة السامع والمتكلم ص ٦٨ ابن جماعة.
(٣) المصدر نفسه ص ٧٠ الحياة العلمية ص ٢٠٥.
(٤) تعليم المتعلم ص ٤٩ الحياة العلمية ص ٢٠٦.
(٥) تعليم المتعلم ص ٧٥ الحياة العلمية ص ٢٠٦.
(٦) تذكرة السامع والمتكلم ص ٩٥.
(٧) الحياة العلمية ص ٢٠٧؟

- كما يلزم على الطالب أن يُحسن مخاطبة شيخه، وألا يقاطعه، أو يخالفه، وأن يتلطف في سؤاله، وأن يحذر من تكرار السؤال، وألا يسبق الشيخ إلى شرح مسألة أو جواب سؤال منه أو من غيره[١].

وإذا ناول الشيخ شيئاً ناوله باليمين، وإذا ناول الشيخ كتاباً ناوله إياه لفتحه والقراءة فيه [٢].

- وينبغي للطالب أن يدعو لشيخه مدة حياته ويرعى ذريته وأقاربه، بعد وفاته.. ويستغفر له ويتصدق عنه [٣] إلى غير ذلك من الواجبات التي كفلت للأستاذ حق الاحترام والتقدير من طلبته حتى تدوم العلاقة الحسنة بين ركني التعليم المدرس والطالب على الحب والمودة والتقدير من كلا الجانبين لتكتمل الفائدة [٤].

٣ – تعليم الإناث:

بلغ اهتمام المرأة المسلمة بالدراسات الشرعية درجة كبيرة لتتعرف على تعاليم الدين الإسلامي الصحيح لتطبيقه عملياً، وكانت دراسة الحديث الشريف تأخذ القسط الأوفى من هذا الاهتمام حيث بلغ كثير من النساء بهذا العلم درجة عالية، ونافسن فيه كبار الحفاظ والمحدثين، وكنّ مثالاً رائعاً للأمانة والعدالة وقد أشارت كتب التراجم والطبقات إلى النشاط العلمي الملموس لهذه الفئة في العهد الزنكي حيث ذكرت تلك المصادر أسماء العديد من المقرئات، والمحدثات والفقيهات، والأديبات، والنحويات، إلى غير ذلك من العالمات بالعلوم الأساسية الأخرى، كما دأب الكثير منهن على التنقل بين الأقاليم الإسلامية مع محارمهن طلباً للعلم على أكابر العلماء والمحدثين وقد حصلن على إجازات علمية من كبار مشايخ العصر في مختلف المدن[٥]، وحسبنا دليلاً على نشاط المرأة في هذا الميدان أن الذين ترجموا لأبن عساكر المتوفى ٥٧١هـ (١١٧٦م) أجمعوا على أنه أخذ العلم عن بضع وثمانين امرأة [٦]، وهذه الإشارة تدل على كثرة النساء المشتغلات بالعلم في ذلك العهد، بحيث أن عالماً واحد من علماء العصر سمع ما يزيد على ثمانين امرأة، هذا فضلاً عن كثير من عدد النساء اللاتي ترجم لهن ابن عساكر في تاريخه [٧] ويبدو من خلال بعض الإشارات التي ذكرها ابن عساكر في تاريخه الكبير أن المنزل كان المدرسة الأولى التي تتلقى فيها المرأة علومها، ويلاحظ على النساء اللاتي اشتهرن بالعلم في ذلك العهد أنهنّ نشأن في بيوت العلماء، وأنهن درسن على آبائهن أو أحد

(١) تذكرة السامع والمتكلم ص ١٠١، ١٠٢.
(٢) تذكرة السامع والمتكلم ص ١٠٨.
(٣) المصدر نفسه ص ٩٠.
(٤) الحياة العلمية ص ٢٠٧.
(٥) الحياة العلمية ص ٢١٢.
(٦) معجم الأدباء (٧٦/١٣) سير أعلام النبلاء (٥٥٦/٢).
(٧) ترجم ابن عساكر في تاريخه لمائة وست وتسعين امرأة من النساء.

ذويهن من أولى العلم، أو أنهن كنّ يستفدن من الدروس التي كانت تعقد في بيوتهن لتعليم الطلاب حيث كنّ يسمعن إلى ما كان يُلقى في منازلهن من دروس، وهو ما أطلق عليه (التعليم داخل منازل العلماء) [١]، فابن عساكر عندما يُترجم لأم أولاده. وابنة خالته - عائشة بنت علي بن الخضر بن عبد الله السّلِمّية المتوفاة سنة ٥٦٤هـ ١١٦٨م يقول عنها: أسمعتها الحديث من فاطمة بنت علي بن الحسين بن سهل بن بشر بن أحمد الإسفرائيني المدعوة سِت العجم، والمعروفة بالعالمة الصغيرة يقول ابن عساكر: سمعت أباها أبا الفرج [٢].

كما أن أبواب المساجد كانت مفتوحة لمن أراد أن يتلقى تعليمه من النساء، حيث كن يترددن لحضور الحِلق التي كانت تعقد فيها في أماكن مخصصة لهنَّ ومعزولة عن أماكن الرجال لا يكون هناك سبيل للاختلاط [٣] ولم يكن للمرأة الحق في التعليم فقط بل كان لها أيضاً الحق في نشر التعليم وقد شاركت المرأة في ذلك وإن لم تتسلم وظيفة التدريس في المدارس التخصصية بالشكل الذي نراه اليوم، فقد أشار ابن عساكر لمثل هذه المشاركة في ترجمته لفاطمة بنت سهل بن بشر المدعوة سِت العجم من أنها: كانت تعظ النساء في المساجد [٤] وممن اشتهر من النساء بالتدريس في هذا العهد: العالمة فاطمة الفقيهة [٥]، المعاصرة للملك العادل نور الدين محمود، فقد تصدرت للتدريس في حلب وألّفت مؤلفات عديدة في الفقه والحديث، كما استشارها الملك نور الدين في بعض أموره، واستفتاها في بعض المسائل الفقهية وكان دائماً يبذل لها ويعينها على مواصلة نشاطها العلمي [٦]، وما حدث بين الملك نور الدين والعالمة فاطمة الفقيهة يؤكد حرص المرأة المسلمة في ذلك العهد على الالتزام التام بالحجاب الإسلامي حيث أن المحادثات بينهما كانت تتم بواسطة امرأة تُندب لهذا الأمر، وفي هذا الصدد يورد القُرشي قصة مفادها: أن علاء الدين الكاساني زوج العالمة فاطمة الفقهية عزم الرحيل من حلب إلى بلاده بإيعاز من زوجته فاطمة، فاستدعى الملك نور الدين الإمام علاء الدين الكاساني، وسأله أن يقيم في حلب، فعرّفه علاء الدين دواعي سفره وأنه لا يمكن أن يخالف زوجته ابنة شيخه، فأرسل الملك إلى زوجته فاطمة خادماً يخاطبها عن الملك في ذلك، فلم تأذن للخادم واحتجبت منه، وأرسلت إلى زوجها من يقول له: بعد عهدك بالفقه إلى هذا الحد أما تعلم أنه لا يحل أن ينظر إليّ هذا الخادم، وأي فرق بينه وبين الرجال في عدم النظر، فعاد الخادم، وذكر ذلك لزوجها بحضرة الملك، فأرسلوا إليها امرأة برسالة الملك فخاطبتها وأجابته إلى ذلك وأقامت بحلب إلى أن توفيت، وتوفي زوجها الكاساني بعدها سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م ودفن عندها بحلب [٧] وقد تحدث الدكتور محمد بن عزوز عن جهود المرأة الدمشقية في رواية الحديث الشريف بنوع من التفصيل.

---

(١) الحياة العلمية ص ٢١٤.
(٢) تاريخ دمشق نقلا عن الحياة العلمية ص ٢١٤.
(٣) الحياة العلمية ص ٢١٥.
(٤) تاريخ ابن عساكر تراجم النساء ص ٢٨٨، الحياة العلمية ص ٢١٥.
(٥) الحياة العلمية ص ٢١٥.
(٦) المصدر نفسه ص ٢١٦.
(٧) الجواهر المضيّة (١٢٣/٤، ١٢٤) الحياة العلمية ص ٢١٦.

٤- أساليب التقويم:

لم يُعرف في العهد الزنكي ما يشير إلى أنه يطلب من المتعلمين تأدية امتحان بعد الانتهاء من الدراسة - كالامتحانات التي تُعقد في عصرنا هذا - ولكن الأساتذة كانوا يمنحون طلبتهم الأكفاء شهادات أو إجازات ينصون فيها على أن الطالب قد أتم دراسة منهج معين، إشراف الشيخ الفلاني دون أن يؤدي الطالب امتحاناً، والغرض من الإجازة الإقرار بكفاية الطالب واجتهاده، وانكبابه على العلم، وتفرغه للدراسة والبحث، وكانت الإجازات العلمية شهادات شخصية يمنحها الشيوخ لمن يرون فيه الكفاية ولا علاقة لها بمنظمة تعليمية معينة - كما هي عليه الحال في الوقت الحاضر - وإذا كانت الإجازة إقراراً بأن الطالب قد أتم دراسة كتب معينة، أو إقراراً له بصلاحيته للتدريس، أو الفتوى بناء على مجهود علمي قام به فهي بذلك تُعد أحد أساليب التقويم، كذلك إذا كانت ألقاب العلماء تعني المكانة العلمية التي بلغها العالم أو المدرس بالنسبة لعلماء عصره فهي أيضاً تُعد من أساليب التقويم وقد انحصرت أساليب التقويم في العهد الزنكي في هذين المعيارين الإجازات العلمية، والألقاب العلمية، كالإمام والحافظ والشيخ والفقيه والمحدث، والمقرئ [١].

ثالثاً: ميادين العلوم في العهد الزنكي:

شملت النهضة العلميّة في العهد الزنكي مختلف العلوم، فلم يقتصر الاهتمام بالعلوم الشرعية واللغوية والأدبية دون غيرها وإن كانت الصيغة العامة لمدارس الزنكيين والدراسات التي قامت بها، هي الاهتمام بدراسة مذهب أو أكثر من المذاهب السُّنية، لكون هذا جزءاً من الأهداف التي أنشئت من أجلها هذه المدارس وتلك الدور التي ركزت اهتمامها على نشر المذهب السني ومقاومة المذهب الشيعي الذي كان منتشراً في بعض المناطق في مدة سابقة على حكم الزنكيين للمنطقة، وبخاصة في بلاد الشام، وبعض مناطق الجزيرة إبان فترة خضوعها للدولة الفاطمية الشيعية [٢] في مصر. ولكن هذا لا يعني بكل الأحوال اقتصار التعليم في ذلك العهد على تدريس الفقه أو غيره من فروع العلوم الشرعية وما يتصل بها من العلوم اللغوية والأدبية، وإنما كانت هناك مدارس علمية تُدرّس فيها مختلف التخصصات العلمية إلى جانب ذلك التخصص الموجه من الدولة، الذي يتوافق مع مصالح الأمة وعقيدتها، فقد نالت ميادين علمية كثيرة نصيباً من اهتمامات الدارسين والباحثين، وقدمت فيها دراسات علمية رائدة، وصنفت فيها كتب مهمة، اعتمد عليها كثير ممن جاء بعدهم حيث ظهرت دراسات متخصصة في العلوم التاريخية والجغرافية وعلوم الرياضيات والفلك، إضافة إلى تدريس الطب في كثير من البيمارستانات المنتشرة في المدن الزنكية، وظهر من بين المشتغلين بهذه التخصصات علماء كان لهم أثر كبير في إثراء المكتبة الإسلامية بالعديد من المؤلفات المتخصصة

(١) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٢٢٠ إلى ٣٣١.
(٢) المصدر نفسه ص ٢٣٧.

التي ظلت رافداً للعلوم الإسلامية حتى الوقت الحاضر [١]، واتساع أفق التفكير الإسلامي في هذا العد وتنوع الدراسات والبحوث التي قدمت فيه نتيجة واضحة للنشاط العلمي الذي شهدته المدن الزنكية خلال ذلك العهد وإليك أهم تلك العلوم:

١ – العلوم الشرعيّة:

كانت الغلبة في ميادين العلوم في العهد الزنكي للعلوم الشرعيّة من قراءات وتفسير وحديث وفقه وأصوله ثم علوم اللغة العربية وآدابها، وهذا الأمر يتفق مع ترتيب العلماء للعلوم حسب أهميتها، فقد رتبوها إلى علوم شرعية وعلوم أخرى تخدمها وتوضحها، وفي هذا المجال ذهب الإمام الماوردي المتوفى ٤٠٥هـ/١٠٥٨م إلى أن أفضل العلوم هي علوم الدين إذ قال: إنه إذا لم يكن إلى معرفة جميع العلوم سبيل وجب صرف الاهتمام إلى معرفة أهمها، والعناية بأولها، وأفضلها، وأولى العلوم وأفضلها علم الدين، لأن الناس بمعرفته يرشدون وبجهله يضلون، إذا لا يصلح أداء عبادة جهل فاعلها صفات أدائها، ولم يعلم شروط أجزائها [٢]، وهذا رأى ابن جماعة أيضاً عندما قال: إذا تعددت الدروس قُدم الأشرف فالأشرف، والأهم فالأهم، فيقدم تفسير القرآن، ثم الحديث، ثم أصول الدين، ثم أصول الفقه، ثم المذاهب ثم الخلاف، أو النحو أو الجدل [٣]، وتشتمل العلوم الشرعية على فروع عديدة من أهمها:

أ – علم القرآن:

وقد نشط علم القراءات في العهد الزنكي وكان من العلوم التي تُدرّس في دور التعليم المختلفة، كما ظهر عديد من علماء القراءات الذين كانت لهم مصنفات مهمة في القراءات في العهد الزنكي:

- عبد العزيز بن علي بن محمد بن سلمة أبو حميد وأبو الأصبغ السماني الإشبيلي المعروف بابن الصحّان المتوفى بحلب ٥٦٠هـ/١١٦٤م أستاذ كبير وإمام محقق بارع مجود ثقة ولد سنة ٤٩٨هـ/١١٠٤م تنقل بين البلاد طلباً للعلم، ودخل الشام ومات بحلب بعد الستين وخمس[٤] مئة وكانت له مصنفات مهمّة في القراءات منها كتاب الوقف والابتداء وكتاب: مرشد القاري إلى تحقيق معالم المقاري الذي قال عنه ابن الجزري: لا يعرف قدره إلا من وقف عليه [٥].

- كما برز من مُقرئي العهد الزنكي: أبو بكر يحيى بن سعدون بن تمّام بن محمد الأزدي المتوفى بالموصل سنة ٥٦٧هـ [٦]، ١١٧٢م من أهل قرطبة، سكن دمشق والموصل أحد أئمة اللغة والقرآن وله يد قوية في النحو والقراءة بروايات مصر والعراق تنقل بين البلاد يطلب العلم حتى وصل الموصل، وأقام بها إلى أن مات، وأقرأ الناس القرآن الكريم بالقراءات، وانتفع به خلق عظيم،

(١) الحياة العلمية ص ٢٣٧.
(٢) أدب الدنيا والدين ص ٤٤.
٢تذكرة السامع والمتكلم ص ٣٥، ٣٦.
(٤) الحياة العلمية ص ٢٤٠.
(٥) غاية النهاية في طبقات القراء (٣٩٥/١).
(٦) المصدر نفسه (٣٩٥/١).

قال عنه ياقوت: شيخ فاضل عارف بالنحو ووجوه القراءات [١]. وقال الذهبي: وبرع في العربية والقراءات وتصدر فيهما مدة [٢].

ب – علم التفسير:

كانت حركة التفسير نشطة في العهد الزنكي حيث كان التفسير مادة أساسية في بعض دور التعليم في هذا العهد، وبرز فيه علماء أجلاء تركوا أثراً زاخراً في هذا العلم كان من أبرزهم:

- الإمام الحافظ حجة الدين محمد بن أبي محمد بن ظفر الصقلّي المتوفى سنة ٥٦٥هـ/١١٦٩م وذكر له ياقوت من التصانيف في التفسير (كتاب التفسير الكبير) وينبوع الحياة [٣].

- ومن المفسرين المبرزين علي بن إبراهيم الغزنويّ المتوفى في حلب سنة ٥٨٢هـ (١١٨٦م) وكان قد تلقى تعليمه في بغداد على إمام التفسير في عصره محمود بن عمر بن محمد الزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨هـ/١١٤٣م صاحب الكشاف في التفسير، فلما عاد إلى حلب تولى التدريس فيها وألف فيها مصنفات عديدة في التفسير والفقه واللغة والأصول، وكان أشهر ما ألفه في التفسير كتاب (تقشير التفسير) [٤] وقد فرغ من تصنيفه في حلب سنة ٥٧٢هـ ١١٧٦م [٥].

ج – الحديث:

ازدهر علم الحديث في العهد الزنكي حتى أنه يمكن أن يعد هذا العهد من العصور الذهبية لدراسات الحديث والتأليف، ففيه أنشئت أول دار للحديث في الإسلام وهي دار الحديث النورية بدمشق ولعل من أبرز عوامل الاهتمام بعلم الحديث ودراسته والتأليف فيه في هذا العهد اهتمام الملك العادل نور الدين محمود نفسه بهذا العلم فقد أثر عنه أنه كان مهتماً بدراسة الحديث الشريف وفهمه [٦]، كما كان له إجازات عديدة في هذا العلم من عدة شيوخ [٧]، وبلغ من حرصه على هذا العلم أن صنّف كتاباً في فضائل الجهاد وأحاديثه وهو بدمشق [٨]، كما كان الاهتمام بعلم الحديث لوناً من ألوان التوجيه الذي فرضه الوجود الصليبي على الدراسات في تلك الفترة، فقد شارك الحافظ ابن عساكر المتوفى سنة ٥٧١هـ ١١٧٦م في هذا المجال بجمع أربعين حديثاً في فضائل الجهاد في جزء واحد وأهداه إلى الملك نور الدين محمود [٩]، كما صنف ابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧هـ/١٢٠١م مصنفاً جمع فيه أحاديث الجهاد وفضائله في كتاب أسماه (البحر النوري)[١٠] وقد زاد الاهتمام بهذا

(١) معجم البلدان (١٤/٢٠، ١٥).
(٢) المصدر نفسه (١٤/٢٠).
(٣) العبر (٥٣/٣).
(٤) كشف الظنون (٤٦٦/١) الحياة العلمية ص ٢٤٥.
(٥) بغية الوعاة (١٤٠/٢) الحياة العلمية ص ٢٤٥.
(٦) التاريخ الباهر ص ١٦٥ الحياة العلمية ص ٢٤٨.
(٧) تاريخ دمشق نقلاً عن الحياة العلمية ص ٢٤٨.
(٨) مرآة الزمان نقلاً عن الحياة العلمية ص ٢٤٨.
(٩) معجم البلدان (٧٨/١٣) الحياة العلمية ص ٢٤٩.
(١٠) مرآة الزمان نقلاً عن الحياة العلمية ص ٢٤٩.

العلم، حيث ظهر في العهد الزنكي عدد كبير من رجال الحديث الذين أفنوا أعمارهم في جمعه وتصنيفه وضبطه وتنقيحه، ومنهم علماء جمعوا تراجم مُستفيضة لرجال الحديث في جميع العصور، وكان لهؤلاء العلماء فضل لا ينكر في كتابة التصنيف في هذا الفرع من العلوم فضل لا ينكر في الكتابة والتصنيف في هذا الفرع من العلوم الشرعية [١] ومن أبرز علماء الحديث في العهد الزنكي:

- الإمام الحافظ أبو القاسم علي بن هبة الله بن عبد الله الشافعي المعروف بابن عساكر الدمشقي، وسيأتي الحديث عنه بإذن الله مستقبلاً.

- وممن برز في علم الحديث في هذا العهد: الإمام مجد الدين أبو السعادات المبارك ابن الأثير الجزري المتوفى ٦٠٦هـ/١٢٠٩م وقد اشتهر مجد الدين بن الأثير في علوم عديدة كان منها علم الحديث، حيث صنف فيه مصنفات هامة كان من أبرزها جامع الأصول في أحاديث الرسول [٢]. ذكر ياقوت أنه جمع فيه بين البخاري ومسلم والموطأ وسنن أبي داود وسنن النسائي والترمذي، عمله على حروف المعجم، وشرح غريب الحديث ومعانيها وأحكامها، ووصف رجالها ونبّه على جميع ما يحُتاج إليها منها ثم قال: أقطع قطعاً أنه لم يُصنّف مثله قط ولا يصنف [٣] وقد طبع هذا الكتاب لأول مرة في القاهرة سنة ١٣٦٨هـ/١٩٤٩م في اثني عشر جزءاً بعناية عبد المجيد سَليم، وحامد الفقي، وهي طبعة ناقصة، ثم أعيد نشره كاملاً بتحقيق عبد القادر الأرناؤوط وطبع في دمشق ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م في أحد عشر جزءاً وهي طبعة جديدة مشتملة على مقدمة وفهارس [٤] وقد قام صاحب كتاب السنة النبوية الشريفة في القرن السادس الهجري بدراسة موسعة عن الحديث في هذا العهد.

ح – الفقه وأصوله:

عمل العلماء في العهد الزنكي على جمع آثار من سبقهم كلّ بحسب مذهبه الذي ينتمي إليه من المذاهب السنية الأربعة: الحنفي، والشافعي، والحنبلي، والمالكي ورجحوا بين الروايات وخرّجُوا على الأحكام، وبنوا فتاويهم على شتى المسائل والفروع من أصول أئمتهم وقواعدهم وفتاويهم [٥]، وكانت الدولة الزنكية تدعم المذاهب السنية الأربعة واستطاعت تلك المذاهب السنية أن تضيق الخناق على الفكر الشيعي الرافضي في الدولة الزنكية، وأصبح الفكر السني هو المذهب السائد في بلاد الشام.

وقد برز خلال العهد الزنكي علماء أجلاء في الفقه وأصوله كان لبعضهم أبحاث رائعة ودراسات جليلة، ونظرات صائبة في دراسة الفقه الإسلامي وأصوله، ومن أشهر أولئك العلماء [٦]:

---

(١) الحياة العلمية ص ٢٤٩.
(٢) معجم الأدباء (٧٦/١٧) الحياة العلمية ص ٢٥٢.
(٣) معجم الأدباء (٧٦/١٧) الحياة العلمية ص ٢٥٢.
(٤) الحياة العلمية ص ٢٥٢.
(٥) المصدر نفسه ص ٢٥٤.
(٦) الحياة العلمية ص ٢٥٤، ٢٥٥.

٥ – في المذهب الشافعي: وممن برز في هذا المذهب، الإمام القاضي أبو الفضل كمال الدين محمد بن أبي عبد الله بن أبي المظفر القاسم الشهرزوري المتوفى سنة ٥٧٢هـ/١١٧٦م [١] وقد وصف بأنه كان: فقيهاً أديباً شاعراً كاتباً فكِه المجالسة، يتكلم في الخلاف والأصول [٢]. هذا بالإضافة إلى شهرته في السياسة وأصول الحكم والكرم، كما كان كثير الصدقات والمعروف، وأوقف أوقافاً كثيرة بالموصل ونصيبين ودمشق على أعمال الخير وطلب العلم، وقد اشتهرت مدرسته بالموصل (الكمالية القضوية) وكان رأس المدرسين فيها، حيث خصصها لتدريس الفقه الشافعي [٣].

- ومن علماء الشافعية البارزين في هذا العهد الإمام قطب الدين مسعود بن محمد النيسابوري المتوفى سنة ٥٧٨هـ/١١٨٢م [٤]، قال عنه السبكي: كان إماماً في المذهب الشافعي والخلاف والأصول والتفسير والوعظ أديباً مناظراً [٥] أما أبرز جهوده في علم الفقه، فتمثل في مصنفه الكبير (كتاب الهادي) في الفقه، والذي قال عنه ابن خلكان: وهو مختصر نافع لم يأت فيه إلا بالقول الذي عليه الفتوى [٦].

- وممن برز في علم الفقه الشافعي أيضاً: الإمام شرف الدين عبد الله بن أبي عصرون المتوفى سنة ٥٨٥هـ (١١٨٩م) وكان من أعيان الفقهاء في ذلك العهد، شارك في تدريس الفقه الشافعي في العديد من المدارس الزنكية، وصنّف كُتباً كثيرة منها: صفوة المذهب من نهاية المطلب وهو في سبع مجلدات وكتاب (الانتصار) لمذهب الشافعي في أربع مجلدات وكتاب المرشد في مجلدين، وكتاب (الذريعة في معرفة الشريعة) في مجلد واحد وكتاب (مآخذ النظر) وكتاب (الإرشاد المُغرَب في نصرة المذهب) ولم يكمله، وذهب فيما ذهب له بحلب [٧].

– المذهب الحنفي: وممن برز في هذا المذهب: الشيخ عبد الغفار بن لقمان من محمد أبو المفاخر الكُردي الملقب تاج الدين المتوفى سنة ٥٦٢هـ/١١٦٦م [٨]، إمام الحنفية في حلب، كان على غاية من الزهد والورع، تولى قضاء حلب للملك نور الدين محمود بن زنكي، وخلَّف آثاراً جمة في الفقه وأصوله، ففي الفقه شرح الجامع الصغير في الفروع للإمام المجتهد محمد بن الحسن الشيباني

(١) المصدر نفسه ص ٢٥٥.
(٢) وفيات الأعيان (٢٤٢/٤).
(٣) طبقات الشافعية (١١٧/٦ - ١٢١) الحياة العلمية ص ٢٥٦.
(٤) الحياة العلمية ص ٢٥٦.
(٥) المصدر نفسه ص ٢٥٦.
(٦) وفيات الأعيان (١٩٦/٥).
(٧) الحياة العلمية ص ٢٥٧.
(٨) الجواهر المضيئة (٤٤٣/٢، ٤٤٤) الحياة العلمية ص ٢٥٨.

الحنفي المتوفى سنة ١٨٧هـ (٨٠٣م) وكان يذكر لكل باب أصلاً ثم يخرّج عليه المسائل [١]، وجمع المسائل التي يتحير في حلها العلماء في كتاب سمّاه (حِيرة الفقهاء [٢]»، وفي أصول الفقه شرح كتاب أستاذه ركن الدين عبد الرحمن بن محمد الكرماني الحنفي المتوفى سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م الموسوم بالتجريد في كتاب سمّاه (المفيد والمزيد) [٣].

- ومن فقهاء الحنفية البارزين في العهد الزنكي الإمام رضي الدين محمد بن محمد السرخسي المُلقب بُرهان الإسلام المتوفى بحلب عام ٥٧١هـ/١١٧٥م [٤]، قدم حلب في عصر نور الدين محمود ودرَّس بالمدرسة النورية والحلاوّية بعد الإمام علاء الدين الغزنوي المتوفى سنة ٥٦٤هـ/١١٦٩م وقد اشتهر الإمام رضي الدين بمصنفه الكبير (المحيط) وهو في أربع مصنفات (المحيط الكبير) وهو نحو من أربعين مجلداً، والمحيط الثاني، عشر مجلدات، والمحيط الثالث، أربع مجلدات، والرابع مجلدين[٥].

وممن اشتهر بالفقه الحنفي الإمام أبو بكر علاء الدين بن مسعود بن أحمد الكاساني ملك العلماء المتوفى بحلب سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م قدِم إلى نور الدين محمود بحلب رسولاً من ملك الروم فولاه نور الدين التدريس بالمدرسة الحلاّوية بعد أن عُزل منها الإمام رضي الدين السّرخسي المتوفى سنة ٥٧١هـ/١١٧٥م، وقد استمر علاء الدين الكاساني مدرساً في الحلاوية حتى وفاته [٦]، تفقه علاء الدين على أبي منصور محمد بن أحمد بن أبي أحمد السمرقندي صاحب (تحفة الفقهاء) وزوّجه شيخه ابنته فاطمة الفقيهة، وجعل مهرها شرح كتاب التحفة في كتاب أسماه البدائع فقال الفقهاء في عصره (شرح تُحفته وزوّجه ابنته) [٧] واشتهر علاء الدين الكاساني وزوجته فاطمة الفقيهة في مذهب أبي حنيفة في بلاد الشام وكانت تحفظ مصّنف والدها (التحفة) [٨] وكان كتاب (البدائع) أشهر مصنفات الإمام علاء الدين الكاساني وهو من الكتب المعتبرة في الفقه الحنفي وسُمي(بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع) [٩].

– **المذهب الحنبلي**: وممن برز في المذهب الحنبلي في العهد الزنكي الشيخ الزاهد أبو الحسن علي بن عمر أحمد بن عمّار بن أحمد بن علي بن عبدوس الحرّاني الفقيه الحنبلي ولد سنة إحدى عشرة وخمس مئة (١١١٦ - ١١١٧م) وسمع ببغداد، وتفقه وبرع في الفقه، والتفسير والوعظ، ثم قدم حرّان وأمّ الناس بجامعها، له مصنفات حسنة في التفسير والفقه الحنبلي أبرزها(المذهب في

(١) كشف الظنون (٥٦١/١) الحياة العلمية ص ٢٥٨.
(٢) الحياة العلمية ص ٢٥٨.
(٣) طبقات الفقهاء ص ١٠١ طاش كبرى زادة الحياة العلمية ص ٢٥٨.
(٤) الحياة العلمية ص ٢٥٩.
(٥) الجواهر المضيئة (٢٥/٤ - ٢٨).
(٦) الحياة العلمية ص ٢٦٠.
(٧) المصدر نفسه ص ٢٦٠.
(٨) كشف الظنون (٣٧١/١).
(٩) شذرات الذهب (١٨٣/٤ - ١٨٤).

المذهب) وكانت وفاته في آخر نهار يوم عرفة سنة ٥٥٩هـ/١١٦٤م بحّران [١].

- ومنهم: أبو العلاء نجم الدين بن عبد الوهاب بن شرف الإسلام عبد الواحد بن محمد بن علي الشيرازي الأصل الدمشقي، شيخ الحنابلة بالشام في وقته، والمتوفى عام ٥٨٦هـ/١١٩٠م ولد سنة ٤٩٨هـ/١١٠٤م سمع وأفتى ودرّس وهو ابن عشرين سنة إلى أن مات [٢]، وغيرهم.

لقد ظهر في هذا العهد كثير من علماء الفقه والأصول، وبخاصة على المذهب الشافعي، والحنفي والحنبلي [٣]. ولا عجب في ذلك - الاهتمام الكبير بالفقه والفقهاء - فقد كان الفقه مصدر التشريع، وعليه يعتمد الحكّام فيما يصدرونه من أحكام، وكان الملك قبل أن يصدر حكماً مهماً يحرص بأن يظفر أولاً بموافقة الفقهاء، بمختلف مذاهبهم على هذا الحكم كما جرى في دمشق حينما عقد الملك العادل نور الدين محمود مجلساً مع الفقهاء للتشاور فيما ينوي اتخاذه في أمر الأوقاف والمصالح المتعلقة بالمساجد، والمدارس و... ومصارف الأوقاف وجواز نقلها إلى مصالح أخرى أهم من الأولى، ولم يتخذ نور الدين حكماً إلا بعد أن استمع لمشورة جميع الفقهاء وحظي بموافقتهم، وناقشهم فيما ينوي القيام به، وكُتِب في ذلك محضر في صورة ما جرى في ذلك المجلس، ووقّع عليه جميع الحاضرين [٤].

وقد اهتم العلماء بفروع أخرى من العلوم، وركزوا فيه دراساتهم وكان أشهر هذه الفروع (الفرائض) الذي يُعد باباً من أبواب الفقه نال اهتماماً خاصاً من العلماء في هذا العهد لأهميته وكثرة الاحتياج إليه، حتى أصبح علماً قائماً بذاته، وموضوعه: البحث عن أحوال قسمة التركة بين مستحقيها على فروض مقدّرة في كتاب الله عز وجل وسنة نبيه محمد ρ وهذا الباب من أصعب أبواب الفقه [٥]، وممن برز في علم الفرائض في العهد الزنكي: الإمام الحافظ حجة الله أبو عبد الله محمد بن أبي محمد بن محمد بن ظفر المكي الصِقلّي المتوفى سنة ٥٦٥هـ/١١٦٩م وكان قد صنف تصانيف كثيرة في علوم عديدة كان منها أرجوزة في الفرائض [٦].

كما خصّ كثير من العلماء جهودهم في العهد الزنكي بعلمي الخلاف والجدل وصنّفوا فيها المؤلفات الحسنة [٧].

وقد جدّ العلماء في العهد الزنكي في دراسة وتحصيل علوم العربية وآدابها فلا يكاد يوجد عالم من المشتغلين بالعلوم الشرعية إلا وقد عني بدراسة هذه العلوم باعتبارها أساساً من أهم الأسس التي تقوم عليها العلوم الشرعية، وقد حظيت العلوم العربية وآدابها بعناية فائقة من الزنكيين حيث حرص

(١) الحياة العلمية ص ٢٦١.
(٢) المصدر نفسه ص ٢٦٣.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) كتاب الروضتين نقلاً عن الحياة العلمية ص ٢٦٣.
(٥) الحياة العلمية ص ٢٦٤.
(٦) معجم الأدباء (٤٩/١٩) الحياة العلمية ص ٢٦٤.
(٧) الحياة العلمية ص ٢٦٥.

الحكام وأمراء هذه الأسرة على اختيار العلماء الأفذاذ في هذا المجال لتولي مناصب الكتابة والإنشاء، وكانوا يستقدمون لهذه الوظائف من ذاع صيته وشأنه في هذه العلوم واجتمع في المدن الزنكية خلال تلك الفترة طائفة كبيرة من اللغويين والنحاة والأدباء وبرز منهم علماء أجلاء خلفوا تراثاً مهماً في علوم العربية وآدابها على اختلاف فروعها والتي من أهمها: اللغة والنحو والصرف والبلاغة والنقد الأدبي، والأدب والعروض والقافية ومن أراد التوسع فليرجع إلى كتاب الحياة العلمية في العهد الزنكي للدكتور إبراهيم بن محمد الحمد المزني [١].

والرسالة التي نريد أن تصل للقارئ أن النهوض عندما يحدث للأمة يكون في الغالب شاملاً وليس عسكرياً أو سياسياً كما يظن البعض ممن يطلقون الأحكام بدون دراسة واعية، أو بحث عميق، ثم يعمّمون هذه الأحكام الناقصة في جلساتهم ومحاضراتهم ومقالاتهم وبالتالي يساهمون في تسويق ثقافة مغلوطة عن تاريخ أمتنا ظالمة لأجدادنا البواسل الذين استوعبوا فقه النهوض ومارسوه في دنياهم.

٢ – العلوم التاريخية والجغرافية:

ازداد الاهتمام بالدراسات الاجتماعية في العهد الزنكي، وبخاصة في ميداني الدراسات التاريخية والجغرافية، وحيث برز في هذا العهد عدد كبير من المؤرخين الذين تنوعت اهتماماتهم في مختلف صور الكتابات التاريخية كما اشتهر عدد من علماء الجغرافيا والرحالة الذين أثروا هذا الجانب بتآليف جديدة مهمة وإذا كان التأليف في فضائل الجهاد والاهتمام بالدراسات الشرعية والأدبية المتعلقة به يجد تفسيره في الوجود الصليبي في المنطقة، فإن الاهتمام بالدراسات التاريخية والجغرافية يرجع للسبب نفسه، وقد تمثل هذا الأثر في ظهور دراسات متخصصة لها طابع الجهاد الإسلامي ضد العدوان الصليبي في المنطقة حيث وجد المتخصصون - بهذا الفرع من العلوم - في الجهاد مادة ذخرت بها مؤلفاتهم سواء عن طريق الكتابات التاريخية التي تؤرخ للمعارك بين المسلمين والصليبيين أو في الكتابة في فضائل المدن، وتراجم الشخصيات البارزة في مجال الجهاد، كما ظهر ذلك الأثر في كتابات الرحالة الذين زاروا المنطقة ووصفوا الأوضاع العامة التي كان يعيشها المسلمون إلى جانب الصليبيين فيها، كما اهتموا بتحديد البلدان وخططها وقد أصبحت المنطقة الزنكية بسبب الوجود الصليبي فيها مركز الاهتمام السياسي والاقتصادي والفكري في العالم الإسلامي، حيث كانت تلك الدولة تمثل مركز اليقظة الإسلامية في مواجهة العدوان الصليبي في المنطقة، إضافة إلى استقطاب قادة هذه الدولة العديد من العلماء الأعلام من كافة المناطق الإسلامية مما كان له أثر في تطور العلوم ونشاطها[٢]، وكانت أبرز الجهود التي بُذلت في ميداني الدراسات التاريخية والجغرافية في هذا العهد تتمثل فيما يأتي:

– **التراجم والطبقات:** يُعد هذا النوع من أهم أنواع الكتابة التاريخية في هذا العهد، فقد عنى به

(١) الحياة العلمية ص ٢٦٨ إلى ٣١٦.
(٢) الحياة العلمية ص ٣١٧.

المؤرخون عناية فائقة فما إن يظهر أحد من المتخصصين في أي فرع من فروع العلم والمعرفة إلا وتناولته كتب التراجم بالكتابة عن تفصيلات حياته ودراسته وتنقلاته وشيوخه وتلامذته وإسهاماته العلمية في مجال التأليف والتدريس وتعد هذه المؤلفات من المصادر المهمّة للتاريخ الإسلامي، إذ أنها تزود الباحث في التاريخ بمادة تاريخية خصبة [١]. ويعُد الحافظ علي بن الحسن بن هبة الله الدمشقي المعروف بابن عساكر من أبرز العلماء الذين اهتموا بالكتابة على هذا المنهج في هذا العهد، إذ كان اهتمامه منصباً على الحديث، وتراجم العلماء وبخاصة رجال الحديث طوال حياته، ومع أن كتابه (تاريخ دمشق) قد شمل التاريخ العلمي والثقافي لمدينة دمشق، فإنه يُعد واحداً من أشهر كتب التراجم بعد كتاب (تاريخ بغداد) للحافظ أبي بكر أحمد بن علي المعروف بالخطيب البغدادي المتوفى ٤٦٣هـ/١٠٧٠م وكان ابن عساكر قد سار على نهجه [٢].

- وممن برز في الكتاب التاريخية على هذا المنهج في العهد الزنكي أبو عبد الله عماد الدين محمد بن صفي الدين أبو الفرج المعروف بالعماد الأصفهاني الكاتب المتوفى سنة ٥٩٧هـ/١٢٠١م الذي صنف الموسوعة المشهورة عن أدباء وشعراء العصر أي كتاب (خريد القصر وجريدة العصر) والذي أرّخ فيه لشعراء وأدباء زمانه في كافة الأقطار الإسلامية [٣].

- وممن كتب في التراجم: المؤرخ المشهور عز الدين أبو الحسن بن علي بن محمد بن عبد الكريم الشيباني المعروف بابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٣م [٤]، فقد كان ابن الأثير مؤلفاً نشيطاً بارعاً، استطاع أن يخلد اسمه بين كبار المؤرخين عن طريق مصنفاته التي من أشهرها: كتاب الكامل في التاريخ، وكتاب (اللباب في تهذيب الأنساب) وكتاب (التاريخ الباهر في الدولة الزنكية) وكتاب (أسد الغابة في معرفة الصحابة) [٥]، الذي أورد فيه ما يربو على سبعة آلاف وخمس مئة ترجمة، واستدرك على ما فاته ممن تقدمه من مؤلفي التراجم وبيّن أوهامهم [٦].

– **التاريخ المحلي (الخاص)**: تخصص فريق آخر من المؤرخين بالتأليف المحلي والذي يُعد تعبيراً صادقاً عن ارتباط المؤرخ بإقليمه، واعتزازه بوطنه. وقد لقي هذا الاتجاه إقبالاً كبيراً من المؤرخين في العهد الزنكي [٧] وقد ظهر في هذا العهد عدد من المؤلفات المهمة في هذا الإطار ومن أبرز ممن كتب في هذا المنهج خلال العهد الزنكي:

– **ابن القلانسي**: أبو يعلى حمزة بن أسد بن علي بن محمد التميمي المتوفى سنة ٥٥٥هـ/١١٦٠م [٨] العميد الأديب الشاعر المؤرخ، كان من أعيان دمشق، ومن أفاضلها المبرزين،

(١) المصدر نفسه ص ٣١٩.
(٢) المصدر نفسه ص ٣٢٠.
(٣) المصدر نفسه ص ٣٢٢.
(٤) سير أعلام النبلاء (٣٥٣/٢٢ - ٣٥٦).
(٥) وفيات الأعيان ٣٤٩/٠٣).
(٦) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٣٢٤.
(٧) المصدر نفسه ص ٣٢٥.
(٨) سير أعلام النبلاء (٣٨٨/٢٠ - ٣٨٩) الحياة العلمية ص ٣٢٥.

وكانت لـه عناية بالحديث، وكان أديباً لـه خط حسن ونظم ونثر ولي رئاسة ديوان الإنشاء بدمشق مرتين، عُمّر بضعاً وثمانين سنة، وتوفي سنة ٥٥٥هـ/١١٦٠م وقد استفاد ابن القلانسي من عمله في ديوان الإنشاء بدمشق، فاطّلع على الوثائق الرسمية بمختلف أنواعها مما أكسب تاريخه أهمية خاصة بالنسبة لأحداث عصره، ولابن القلانسي: كتاب " تاريخ دمشق " بدأ به سنة ٣٦٠هـ/٩٧١م وانتهى إلى سنة وفاته ٥٥٥(١١٦٠م) وهو أول تاريخ لدمشق صنف حسب الحوادث والحوليات، ثم هو المصدر الأساسي لتاريخ الشام أيام الفاطميين والسلاجقة فيه أقدم سيرة لدمشق وأهلها من النواحي العمرانية والاجتماعية والعقدية والسياسية وذلك خلال قرنين حاسمين، ولم يقتصر به هذا الكتاب على تاريخ دمشق بل عاجل فيه مؤلفه كثيراً من الحوادث السياسية التي وقعت في الشام، والعراق والجزيرة، ومصر، ولكنها بصورة مقتضبة، فضلاً عن اهتمامه بأحوال الإمارات الصليبية في بلاد الشام وما كان يدور بينها وبين القوى الإسلامية في المنطقة من نزاع مستمر [١].

- ومن المؤرخين في التاريخ المحلي، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم بن الأثير الجزري المتوفى سنة ٦٣٠هـ(١٢٣٣م) وقد صنف كتاب "تاريخ الموصل" وهو الموسوم " بالتاريخ الباهر في الدولة الأتابيكية" وهو تاريخ للدولة الزنكية بالموصل عرض فيه ابن الأثير بالإضافة إلى الأخبار السياسية تفاصيل منوعة اقتصادية واجتماعية وثقافية عن الموصل من مطلع عماد الدين زنكي سنة ٥٢١هـ/١١٢٧م حتى وفاة الملك نور الدين أرسلان شاه سنة ٦٠٧هـ/١٢١٠م [٢].

– **التاريخ العالمي (العام)**: وهو الكتابة التاريخية التي يتناول فيها المؤرخ الأحداث مُنذ بدء الخليفة حتى عصره دون الارتباط بإقليم واحد، وأهم كتاب في ذلك العصر الكامل في التاريخ لعز الدين علي بن محمد الجزري المتوفى ٦٣٠هـ ١٢٣٣م، فلقد نال ابن الأثير شهرته بين مؤرخي القرن السادس الهجري بسبب تأليفه لهذا الكتاب وكان قد ألفه على طريقة الحوليات، ابتدأ فيه بأول الزمان حتى وصل به إلى سنة ٦٢٨هـ ١٢٣١م وقد تحرى ابن الأثير الحقيقة والدّقة فيما كتب، وحاول الابتعاد عن الإسهاب وتكرير الروايات، ثم إنه راعى التوازن في كتابه لتاريخه بين أقاليم العالم الإسلامي، فلم تصرفه الأحداث التي ألّمت بالمشرق عما كان يجري بالمغرب من تطورات[٣]، وقد تابع ابن الأثير في كتابه الكامل المعلومات التاريخية التي أوردها الإمام محمد بن جرير الطبريّ في تاريخه متابعة دقيقة إلى حد بعيد فلخّصها ثم أضاف إليها الكثير من المعلومات، وبخاصة تلك التي تتعلق بالفترة التالية لتوقف الطبري عن الكتابة وبذلك احتل ابن الأثير مكانة مرموقة بين المؤرخين المسلمين، واتخذ كتابه طابع التاريخ العام أكثر من أي تاريخ عام غيره [٤].

– **التاريخ المعاصر والمذكرات**: وممن عاصر الأحداث في عهد الدولة الزنكية وكتب عنها بأسلوب المذكرات أبو المظفر مؤيد الدّولة أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد الشيزري المتوفى سنة

(١) الحياة العلمية ص ٣٢٦.
(٢) الحياة العلمية ص ٣٢٨.
(٣) الحياة العلمية ص ٣٢٨.
(٤) المصدر نفسه ص ٣٢٩.

٥٨٤هـ/١١٨٠م [١]، ولـه كتاب (الاعتبار) وهذا الكتاب قلّ أن يوجد ما يشابهه من كتب التاريخ في ذلك العهد إذ يضعنا أسامة بن منقذ في هذا الكتاب أمام مذكرات في الأدب التاريخي تتضمن خلاصة تجارب أسامة وما صادفه أسامة في حياته من حوادث، وتعكس صور الحياة في العصر من حروب وفروسية، وملامح من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعلمية على الصعيدين الإسلامي والصليبي [٢].

- وممن كتب بأسلوب المذكرات العماد الأصفهاني الكاتب المؤرخ المتوفى سنة ٥٩٧هـ/١٢٠١م ومن أهم ما كتب في هذا المجال، البرق الشامي؛ وهو أشبه بالمذكرات الشخصية لأنه بدأه بذكر نفسه وحياته وانتقاله من العراق إلى الشام وأخباره مع نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي وتاريخ دولتهما مع ذكر بعض الفتوح بالشام [٣].

– **الجغرافيا والرحلات** تعد الرحلات وزيارة الأقطار المختلفة من أهم وسائل المعرفة الجغرافية، وقد اشتهر كثير من الجغرافيين المسلمين مثل ابن حوقل، والمسعودي، والمقدسي، والإدريسي وابن جُبير وابن بطوطة برحلاتهم الطويلة، حيث فاق المسلمون في ميدان الرّحلة والكشف الجغرافي غيرهم من الشعوب، وساعد على الرّحلات الإسلامية أمور عديدة منها: اتساع رقعة الدولة الإسلامية بعد الفتوحات، وانطلاق المسلمين إلى مراكز العلم المنتشرة في سائر أقطار العالم الإسلامي، كذلك رحل الناس للتجارة بين الأقطار الإسلامية في المشرق والمغرب أو لأداء فريضة الحج إلى بيت الله، أو القيام بمهمة كأن يكون الرّحالة سفيراً للخليفة أو السلطان [٤] وكان معظم الرحالة المسلمين يحرصون على تدوين مشاهداتهم، وتسجيل أخبارهم، والمسالك والطرق التي ساروا فيها والمسافات التي قطعوها في تنقلاتهم، كما كانوا يصفون المدن التي يمرّون بها ويذكرون الصعوبات التي واجهتهم في رحلاتهم، ويصفون ما عاينوه من مظاهر الحضارة في كل بلد طرقوه، كالمنتجات الزراعية والصناعات والتجارة، كما أن بعضهم كان يصف بعض مظاهر الحياة الاجتماعية في الأقطار المختلفة التي يمرُّ بها [٥] فكانت تلك الرحلات وما تقدمه من معلومات مبنية على المشاهدة والاطلاع من أبرز عوامل تقدم وتطور المعارف الجغرافية عند المسلمين [٦].
ولقد كان لعدد من علماء العهد الزنكي أثر في الدراسات الجغرافية، وبخاصة ما لـه صلة بالرحلات الجغرافية من أشهرهم -: أبو الحسن علي بن أبي بكر بن علي الهروي الموصلي المتوفى سنة ٦١١هـ/١٢١٥ [٧] الذي قضى معظم حياته بالتجوال والرحلات حتى لقب بالسائح وأبو الحسن الهروي أصله من هراة ولكنه ولد بالموصل، ومنها انطلق برحلاته إلى الشام، والعراق، واليمن

(١) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٣٣٠.
(٢) المصدر نفسه ص ٣٣٠.
(٣) المصدر نفسه ص ٣٣٠.
(٤) التاريخ والمؤرخون العرب ص ٢١١ الحياة العلمية ص ٣٣١.
(٥) التاريخ والمؤرخون العرب ص ٢١٣ - ٢١٤.
(٦) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٣٣٢.
(٧) وفيات الأعيان (٣٤٦/٣ - ٣٤٨) الحياة العلمية ص ٣٣٢.

والحجاز، ومصر، وبلاد الروم وبعض جزر البحر المتوسط مثل صقليّة، وقد تنقل خلال رحلاته في أرجاء المدن المختلفة وتكلّم عن مشاهدها ومساجدها وخالط أهلها، والتقى بالعلماء وأخذ عنهم، ولم يكن في تجواله مقتصراً على طلب العلم فقط، بل إنه وثّق علاقاته مع عدد من الجغرافيين المعروفين في عصره [١]، قال عنه ابن خلكان: طاف البلاد وأكثر من الزيارات، وكاد يطبق الأرض بالدوران، فإنه لم يترك براً ولا بحراً، ولا سهلاً ولا جبلاً من الأماكن التي يمكن قصدها ورؤيتها إلا رآه ولم يصل إلى موضع إلا كتب خطه في حائطه ولقد شاهدت ذلك في البلاد التي رأيتها مع كثرتها [٢]، وقد ألف الهروي عن رحلاته هذه كتابه: (الإشارات إلى معرفة الزيارات) [٣].

٣ – علوم الرياضيات والفلك:

اهتم المسلمون في ذلك العهد بشتى فنون العلوم المختلفة، ومن ذلك علوم الرياضيات والفلك حيث نالت تلك التخصصات قدراً كبيراً من اهتماماتهم، فبرعوا في علم الحساب وصنّفوا فيه المصنفات، بحثوا فيها الأعداد وأنواعها وخواصها وتوصلوا إلى إضافات ونتائج أثارت إعجاب علماء الغرب ودهشتهم فاعترفوا بفضلهم وأسبقيتهم في هذا المجال، وترجموا كثيراً من كتب المسلمين مما كان له أثر كبير في تقدم هذا العلم، كما اشتغل عدد من العلماء بعلم الجبر وأتوا فيه بالعجب العجاب، حتى أن (كاجوري) قال: إن العقل ليدهش عندما يرى ما عمله العرب في الجبر [٤]. وقد نبغ في العهد الزنكي عدد من علماء الرياضيات والفلك مما كان لدراساتهم ومصنفاتهم أثر واضح في إثراء الدراسات الرياضية والفلكية وقد تمثلت أبرز الجهود في الآتي:

– **الرياضيات**: كانت العلوم الرياضية من حساب وجبر وهندسة من العلوم التي كانت تدرس في بعض المدارس الزنكية، كما أن هناك تنقلات ورحلات بين المناطق الزنكية لتحصيل هذه العلوم من العلماء البارعين في هذا المجال، ومما ساعد على تشجيع هذا الفرع من العلوم حاجة الفقهاء الماسة إلى علمي الحساب والجبر في تقسيم المواريث أو ما يسمى بعلم الفرائض، وكذلك الحاجة إلى هذه العلوم في معرفة المواقيت واتجاه البلدان لإقامة الصلاة، كما ظهرت الحاجة إليها في حسابات الدواوين، وفي بعض الأمور الإدارية الأخرى ومن علماء العهد الزنكي البارزين في ميدان الرياضيات كمال الدين أبو الفتح موسى بن أبي الفضل يونس بن محمد بن منعة الموصلي المتوفى ٦٣٩هـ/١٢٤٢م ولما ذاع صيته في علم الرياضيات أخذت الرسائل تنهال عليه من علماء الرياضيات المعاصرين له يقول ابن خلكان: كنت بدمشق سنة ثلاث وثلاثين وستمائة، وبها رجل فاضل في علوم الرياضة، فأشكلت عليه مواضع في مسائل الحساب والجبر والمقابلة والمساحة وإقليدس، فكتب جميعها في درج وسيّرها إلى الموصل، ثم بعد أشهر عاد جوابه، وقد كشف عن خفيها وأوضح

(١) تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين هاشم ص ٣٣٣.
(٢) وفيات الأعيان (٣٤٦/٣) الحياة العلمية ص ٣٣٣.
(٣) الحياة العلمية ص ٣٣٣.
(٤) تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك ص ٦١.

غامضها، وذكر ما يعجز الإنسان عن وصفه [١]، ولكمال الدين بن منعة مصنفات جليلة في الرياضيات ذكر منها بروكلمان: شرح الأعمال الهندسية، وهو محفوظ في مكتبة أيا صوفيا بأسطنبول رقم ٢٧٥٣، وله رسالة في البرهان على المقدمة التي أهملها أرخميدس في كتابه تسبيع الدائرة وكيفية اتخاذ ذلك وهو محفوظ في مكتبة بودليانا برقم (٩٨٧/٨) [٢].

– **الفلك**: يعرف قديماً بعلم الهيئة وموضوع الأجرام السماوية من النجوم والكواكب وأحوالها وأبعادها وحركاتها وحساب الأيام والشهور والسنين والفصول على أساس تلك الحركات، وتحويل السنين من القمرية إلى الشمسية وبالعكس وأطوال البلاد وعروضها، والرياح والأمطار، وكسوف الشمس، وخسوف القمر وما إلى ذلك من مباحث كثيرة منها نظرية وأخرى عملية، وبعض هذه المباحث تدخل الآن في علم الفضاء [٣] وكانت أبرز الجهود التي بذلت في العهد الزنكي قد تركزت في الموصل، وكان الشيخ كمال الدين موسى بن يونس بن منعة في مقدمة العلماء الذين نشطوا في هذا الميدان، فقد قام بتدريس أصول هذا العلم لطلابه في المدارس التي درّس بها، وصنف في هذا العلم ووردت إليه - أيضاً - مسائل في مشكلات هذا العلم قام بتفسيرها، وحلّ رموزها، ونبّه على براهينها بعضها من بغداد وأخرى وردت إليه من بعض ملوك أوروبا [٤]، ومما ينسب إلى كمال الدين في هذا العلم، أنه قد عرف أشياء كثيرة في قوانين تذبذب الرقاص [٥]، ويذكر طوقان أن كمال الدين قد سبق العالم الإيطالي غاليليو المتوفى سنة ١٠٥٢هـ/١٦٢٤م في هذا المجال [٦]. وقد كانت الموصل مركزاً له أهمية خاصة في علوم الرياضيات والفلك في العهد الزنكي [٧].

٤ – علوم الطب والصيدلة:

– **الطب**: علم الطب يبحث فيه عن بدن الإنسان، من جهة يصح ويمرض لحفظ الصحة، وإزالة المرض، وفائدته: بيّنة لا تخفى وكفى بهذا العلم شرفاً وفخراً: قول الإمام الشافعي - رحمه الله: العلم عِلمان: علم الطب للأبدان، وعلم الفقه للأديان [٨]. وقد تقدم وارتفع شأن الطبّ في العهد الزنكي وتقدمت وسائل دراسته ولعل من انتشار البيمارستانات في المدن الزنكية واهتمام الحكام والأمراء بإنشائها ووقف الكتب الطبية في ذلك العهد والتي كانت من نتائجها بروز عدد كبير من الأطباء الذين أثروا المكتبة الإسلامية بالكثير من المؤلفات الطبية التي كان لها مع ما سبقها من دراسات أثر كبير في إثراء الدراسات الطبية في العصور التي تلتها، استمراراً حتى العصر الحاضر وممن برز في هذا الميدان: الطبيب أفضل الدولة أبو المجد محمد بن أبي الحكم المتوفى سنة

(١) وفيات الأعيان (٣١٥/٥) الحياة العلمية ص ٣٣٦.
(٢) تاريخ الأدب العربي (٢٢٢/٤ - ٢٢٣) الحياة العلمية ص ٣٣٧.
(٣) الحياة العلمية ص ٣٣٩.
(٤) المصدر نفسه ص ٣٣٩.
(٥) الرقّاص: أو رقّاص الساعة، يسمى باسم البندول.
(٦) تراث العرب العلمي ص ٣٩٨.
(٧) الحياة العلمية ص ٣٤١.
(٨) مفتاح السعادة (٣٠٣/١) الحياة العلمية ص ٣٤٢.

٥٧٠هـ/١١٧٤م [١]، الذي اشتهر بالتدريس بالبيمارستان النوري بدمشق زمن الملك العادل نور الدين محمود، وكان نور الدين قد أوكل إليه مهمة التطبيب في ذلك البيمارستان بعد إنشائه، وقد وصف لنا ابن أبي أصيبعة كيف كان ابن أبي الحكم يتفقد المرضى بنفسه، وطريقته في تدريس الطب في ذلك البيمارستان، ومناقشاته مع طلابه، ولكنه لم ينسب إليه أي كتاب ألّفه في الطب[٢]، وممن اشتهر بالطب في هذا العهد أبو جعفر عمر بن علي بن البذوخ القلعي المغربي المتوفى سنة خمس أو ست وسبعين وخمس مئة (١١٧٩ - ١١٨٠م) [٣]، وكان فاضلاً خبيراً بمعرفة الأدوية المفردة والمركبة، وله حسن نظر في الاطلاع على الأمراض ومداواتها، أقام بدمشق سنين كثيرة، وكانت له دكّان عطر بدمشق يجلس فيها ويعالج من يأتي إليه، أو يستوصف منه، وكان له عناية بالكتب الطبية والنظر فيها، وتحقيق ما ذكره المتقدمون من صفة الأمراض ومداواتها، وكانت له مع ذلك عناية بعلم الحديث وله شعر كثير إلا أن أكثر شعره ضعيف منحول وعُمرّ بن البذوخ عمراً طويلاً، وضعف عن الحركة حتى إنه كان لا يأتي إلى دكانه إلا محمولاً، وعمي في آخر عمره حتى توفي [٤]، ولابن البذوخ من الكتب الطبية (شرح كتاب الفصول لأبقراط) وشرح كتاب تقدمة المعرفة لأبقراط أيضاً، وله كتاب (ذخيرة الألباء) والمفرد في التأليف عن الأشياء وله حواشي وضعها على كتاب (القانون لابن سينا) [٥].

– **الصيدلة**: ويقصد بها علم الأدوية وتركيباتها وهي متصلة بعلم الأعشاب (النبات) وبعلمي الحيوان والمعادن وبالكيمياء، فإن الأدوية نباتية وحيوانية ومعدنية، ثم هي تحتاج إلى معالجة وإلى نسب في التركيب تقتضي المعرفة بالكيمياء [٦]، ونظراً لعدم توفر المعرفة التامّة بطرق التحاليل الكيميائية في تلك العصور، فقد نظم المسلمون مهنة الصيدلة، فجعلوا على الصيادلة نقيباً يسمى رئيس العشّابين، وأخضعوا تلك المهنة لرقابة عريف الحسبة حتى يحولوا دون غش الدواء [٧]، وقد برع الأطباء المسلمون في تركيب الأدوية بنسب معينة، وبرز خلال العهد الزنكي عدد من المتخصصين في تركيب الأدوية (الصيدلة) كانوا في الأصل أطباء فقد ذكر ابن أبي أصيبعة على الطبيب بن البُذوخ المغربي المتوفى سنة ٥٧٥هـ أو ٥٧٦هـ (١١٧٩م - ١١٨٠م) [٨]، كان خبيراً بمعرفة الأدوية المفردة المركبة، وكانت له دكان عطر بدمشق يجلس فيها، ويعالج من يأتي إليه أو يستوصف منه، وأنه كان يهيئ عنده أدوية كثيرة مركبة يصنعها من سائر المعاجين والأقراص والسفوفات وغير ذلك، يبيع منها وينتفع الناس بها [٩]، كما ذكر أبو الحسن علي بن أحمد البغدادي

(١) الحياة العليمة في العهد الزنكي ص ٣٤٣.
(٢) المصدر نفسه ص ٣٤٣.
(٣) المصدر نفسه ص ٣٤٣.
(٤) المصدر نفسه ص ٣٤٣.
(٥) المصدر نفسه ص ٣٤٣.
(٦) تاريخ العلوم عند العرب ص ٢٩٤ الحياة العلمية ص ٣٤٥.
(٧) نهاية الرتبة ص ٤٢ للشيرازي الحياة العلمية ص ٣٤٥.
(٨) الحياة العلمية ص ٣٤٦.
(٩) عيون الأنباء ص ٦٢٨ الحياة العلمية ص ٣٤٦.

(المتوفى سنة ٦١٠هـ/١٢١٣م) في كتابه المختارات في الطب كثيراً من أنواع المأكولات وأثرها على الصحة وأنواع العلاجات والأدوية وكيفية استخراجها [١].

لقد ركزت السلطة القائمة في العهد الزنكي على إحياء العلوم الشرعية والعناية بها بالدرجة الأولى لأسباب كثيرة من أبرزها الحرص على الدفاع عن العقيدة الإسلامية أمام الحركات الفكرية والسّرية - الهّامة - والتي كانت تستهدف تشكيك المسلمين في العقيدة الإسلامية توطئة للسيطرة عليهم، وعلى رأس هؤلاء فرقة الباطنية لذا تقلصت الدراسات الفلسفية ودراسة المنطق التي تخدم الفكر الشيعي الباطني، وتحقّق لعلماء الشريعة فرصة الوصول إلى مراكز التوجيه الفكري والثقافي في هذا العهد كما صاحب هذا النشاط في ميدان العلوم الشرعية نشاط آخر في ميدان الدراسات اللغوية والأدبية، والتاريخية والجغرافيا كما قُدمت دراسات علمية راقية في ميدان الرياضيات بفروعها المختلفة، وفي علم الفلك والميقات، إضافة إلى الاهتمام بالدراسات الطبية والصيدلة والتي كان مجالهما داخل البيمارستانات المنتشرة في المدن الزنكية، وبرز من بين العلماء المشتغلين بتلك العلوم علماء كان لهم أثر كبير في إثراء المكتبة الإسلامية بالعديد من المؤلفات المتخصّصة والتي ظلت مرجعاً للبحوث العلمية حتى الوقت الحاضر [٢].

رابعاً: ابن عساكر ودوره في الجهاد ضد الصليبيين:

قال عنه الذهبي هو: الإمام العلاّمة الحافظ الكبير المجوّد، محدث الشام، ثقة الدين، أبو القاسم الدمشقي الشافعي صاحب تاريخ دمشق[٣]، وهو علي بن الشيخ أبي محمد الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسين [٤]، صنف الكثير - من الكتب - وكان فهماً حافظاً متقناً ذكياً بصيراً بهذا الشأن، لا يُحلّقُ شأوه ولا يشق غباره، ولا كان له نظير في زمانه [٥]، كان مواظباً على صلاة الجماعة وتلاوة القرآن، يختم كل جمعة، ويختم في رمضان كل يوم، ويعتكف في المنارة الشرقية، وكان كثير النوافل والأذكار.. ويحاسب نفسه على لحظة تذهب في غير طاعة [٦]، وقد لزم طريقة واحدة مدة أربعين سنة من لزوم الجماعة في الخمس في الصَّف الأول إلا من عذر، والاعتكاف في رمضان وعشر ذي الحجة وعدم التطلع إلى تحصيل الأملاك وبناء الدور، وقد أسقط ذلك عن نفسه، وأعرض عن طلب المناصب في الإمامة والخطابة، وأباها بعد أن عرضت عليه وقلَّ التفاته إلى الأمراء وأخذ نفسه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا تأخذه في الله لومة لائم [٧].

وكان له نظم من الشعر منه قوله:

ألا إنَّ الحديث أجلُّ علم ::: وأشرَفُهُ الأحاديث العوالي

(١) المختارات (٢/٢١٠ - ٣٣٦).
(٢) الحياة العلمية ص ٣٤٦.
(٣) سير أعلام النبلاء (٢٠/٥٥٤).
(٤) المصدر نفسه (٢٠/٥٥٥).
(٥) المصدر نفسه (٢٠/٥٥٦).
(٦) المصدر نفسه (٢٠/٥٦٢).
(٧) المصدر نفسه (٢٠/٥٦٥).

وأنفـــع كـــل نـــوع منـــه عنـــدي ::: وأحســـــنه الفوائـــــدُ والأمـــــالي
فإنـــك لـــن تـــرى للعلـــم شـــيئاً ::: تحقَّقُـــــهُ كـــــأفواه الرِّجـــــال
فكـــن يـــا صـــاح ذا حِـــرْصٍ عليـــه ::: وخـــذه عـــن الشـــيوخ بـــلا مَـــلالِ
ولا يأخُـــذْهُ مـــن صُـــحُفِ فترمـــى ::: مـــن التصـــحيف بالـــداء العضـــال [١]

ومن شعره أيضاً:

أيـــا نفـــس ويحـــك جـــاء المشـــيب ::: فمـــاذا التصـــابي ومـــاذا الغـــزل
تـــولَّى شـــبابي كـــأن لـــم يكـــن ::: وجـــاء مشـــيبي كـــأن لـــم يـــزل
كـــأني بنفســـي علـــى غِـــرَّة ::: وخطـــبُ المنـــون بهـــا قـــد نَـــزَلْ
فيـــا ليـــت شـــعرِيَ ممـــن أكـــون ::: ومـــا قـــدَّر الله لـــي فـــي الأزل [٢]

قال عنه رفيقه أبو سعد السمعاني: كثير العلم، حافظ متقن دين خير، جمع بين معرفة المتون والأسانيد، صحيح القراءة، متثبت محتاط رحل في طلب الحديث، وتعب في جمعه، وبالغ في الطلب[٣] وقال ابن النجار: إمام المحدثين في وقته ومن انتهت إليه الرئاسة في الحفظ والإتقان وبه ختم هذا الشأن [٤]. وقال السيوطي: الإمام الكبير، حافظ الشام، بل حافظ الدنيا، الثقة الثبت الحجة، ثقة الدين.. وكان من كبار الحفاظ المتقنين، ومن أهل الدين والخير، غزير العلم، كثير الفضل، جمع بين معرفة المتن والإسناد [٥] وقال عنه السبكي: سمع الحديث وعمره ست سنين، ثم طلبه بنفسه ورحل في هذا الشأن عشرين سنة.. وأبعد الرحلة وجمع، وكتب الكثير في العراق وخراسان وأصفهان، وغيرها، ومن جملة شيوخه ألف وثلاثمائة شيخ ونيف وثمانون امرأة حتى أصبح: إمام أهل الحديث في زمانه وحامل لوائه[٦].

١ – مساندته الفكرية والعقائدية لنور الدين محمود:

برزت شخصية ابن عساكر إلى جانب السلطان نور الدين محمود في معاضدته على الوحدة والجهاد، حيث اندفع يطلب منه إلى التطبيق العملي في تأليف (الأربعون حديثاً في الحث على الجهاد) قال ابن عساكر: وأحب أن أجمع له أربعين حديثاً في الجهاد تكون واضحة المتن متصلة الإسناد تحريضاً للمجاهدين الأجلاء [٧].

وكان هدف ابن عساكر هو تثقيف المجتمع الإسلامي آنذاك للقيام بواجب الوقت وهو الوقوف إلى جانب نور الدين محمود ضد الخطر الصليبي وبسبب قناعة آل زنكي بأن الأعمال العسكرية

(١) المصدر نفسه (٥٦٩/٢٠).
(٢) سير أعلام النبلاء (٥٧٠/٢٠).
(٣) موارد ابن عساكر في تاريخ دمشق (٥٩/١).
(٤) المصدر نفسه (٥٩/١).
(٥) المصدر نفسه (٦٠/١).
(٦) طبقات السبكى (٢٧٣/٤).
(٧) موقف فقهاء الشام وقضاتها ص ١٠٢.

والسياسية لا تكون ناجحة مؤثره إلا بدعم فكري وعقائدي وعاطفي وديني، واستجاب ابن عساكر لطلب نور الدين وقال في مقدمته:... فسارعت إلى امتثال ما التمس من المراد وجمعت له ما يرتضيه أهل المعرفة والانتقاد، واجتهدت في جمعها غاية الاجتهاد، رجاء أن يحصل لي أجر التبصير والإرشاد، والله الموفق للصواب في الإصدار والإيراد، والمسدد في الأقوال في الإسهاب والاقتصاد [١] وقد خصص ابن عساكر العشرة الأولى منها من توضيح منزلة الجهاد بعد منزلة الإيمان بالله مباشرة لتحريض المسلمين لمواجهة الخطر الصليبي [٢] ومن هذه الأحاديث.

- سئل رسول الله ρ، أي الإيمان أفضل؟ قال: «**إيمان بالله عز وجل**»، قيل: ثم ماذا؟ قال: «**ثم الجهاد في سبيل الله عز وجل**» قيل: ثم ماذا؟ قال: «**حج مبرور**» [٣].

- قلت: يا رسول الله أي العمل أفضل؟ قال: «**إيمان بالله وجهاد في سبيله**» قلت: يا رسول الله فأي الرقاب أفضل؟ قال: «**أنفسها عند أهلها وأغلاها ثمناً**» قال: فإن لم أجد قال: «**تعين ضائعاً أو تضع لأخرق**» قال: فإن لم استطع قال: «**تكف أذاك عن الناس فإنها تصدق بها عن نفسك**» [٤].

- قلت: يا رسول الله أي الأعمال أحب إلى الله عز وجل قال: «**أن تصلي الصلوات لمواقيتها**» قلت: ثم أي؟ قال: «**بر الوالدين**» قلت: ثم أي؟ قال: «**الجهاد في سبيل الله**» ولو استزدته لزادني[٥]. وفي الأحاديث الأخرى حاول ابن عساكر أن يذكر الناس بمنزلة المجاهد في سبيل الله فمثلاً في الحديث الحادي عشر قال الرسول ρ: «**يا أبا سعيد الخدري – من رضي بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً وجبت له الجنة**» قال: فعجب لها أبو سعيد، قال: أعدها علي يا رسول الله، ففعل، ثم قال رسول الله «**وأخرى يرفع بها العبد مائة درجة في الجنة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض**» قال: وما هي يا رسول الله قال: «**الجهاد في سبيل الله عز وجل**» [٦].

- وفي الحديث الثاني عشر: قال الرسول ρ: «**في الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض أعدها الله للمجاهدين في سبيله**» [٧]. وهناك الكثير من الأحاديث التي ذكرها ابن عساكر فهي لا تدعو ولا تذكر الجهاد مباشرة، ولكنها تدعو إلى القتال في سبيل الله.

- كما هو الحال في الحديث التاسع عشر: قال رسول الله ρ: «**ألا أخبركم بخير الناس وشر الناس؟ إن من خير الناس رجلاً عمل في سبيل الله على ظهر فرسه أو على ظهر بعيره أو على قدميه حتى يأتيه الموت وهو على ذلك**» [٨]. كما أورد أحاديث في الرباط في سبيل الله مثلاً كالحديث الواحد والعشرين.

---

(١) ابن عساكر ودوره في الجهاد ضد الصليبيين ص ١٠٨.
(٢) موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي ص ١٠٣.
(٣) مسلم رقم ٨٣.
(٤) البخاري رقم ٢٥١٨.
(٥) صحيح ابن حبان رقم ١٤٧٦، ابن عساكر ودوره في الجهاد ضد الصليبيين ص ١١١.
(٦) مسلم في الإمارة رقم ١٨٨٤.
(٧) البخاري رقم ٢٧٩٠.
(٨) سنن النسائي، كتاب الجهاد، باب فضل من عمل في سبيل الله (١١/٦، ١٢).

- قال رسول الله ρ: «**كل ميت يختم على عمله إلا المرابط في سبيل الله، فإنه ينمو له عمله إلى يوم القيامة**» (١).

- وفي الحديث الثالث والعشرين قال رسول الله ρ: «**رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها**» (٢). كما ذكر الخيل وضرورته في القتال مثلاً في الحديث السابع والعشرين.

- قال الرسول ρ: «**من احتبس فرساً في سبيل الله إيمانا بالله وتصديقاً بموعد الله كان شبعه وروثه وبوله حسنات في ميزانه يوم القيامة**» (٣).

- وفي الحديث الخامس والثلاثين: قال الرسول ρ: «**طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله**»(٤).

وأحاديث أخرى في صناعة الأسلحة في الحديث التاسع العشرين مثلاً يقول الرسول ρ: «**إن الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة، صانعه الذي يحتسب في صنعته الخير، والذي يجهز به في سبيل الله والذي يرمى به في سبيل الله، قال: ارموا واركبوا وأن ترموا خير من أن تركبوا**» (٥). وليس ذلك فقط، بل وذكر فضل أولئك الذين يوجهون أسلحتهم لأعداء الإسلام.

- قال رسول الله ρ: «**من تقلد سيفاً في سبيل الله قلده الله عز وجل يوم القيامة وشاحين من الجنة لا تقوم لهما الدنيا وما فيها**» (٦). وفي أحاديث أخرى ساوى بين الإنفاق في الحج والإنفاق في سبيل الله في الحرب مثلاً في الحديث الثلاثين: قال رسول الله ρ: «**النفقة في الحج مثل النفقة في سبيل الله الدرهم بسبعمائه**» (٧).

إن نظرة سريعة للأحاديث التي ذكرها ابن عساكر نلاحظ أنه اختارها بدقة كبيرة من بين الأحاديث الكثيرة التي تطرقت إلى الجهاد، وبصورة عامة فهو اختار أحاديث تتحدث عن منزلة الجهاد في الإسلام، وفضل المجاهد على غيره من المسلمين، وعن أولئك المسلمين الذين يجهزون للقتال أدوات الحرب آنذاك كالخيول والسلاح والمرابطة في سبيل الله.. إلخ وقد استفاد نور الدين من جهود ابن عساكر في تعبئته الفكرية والدينية التي كرس حياته لها وقد آتت ثمارها في مواجهة الغزو الصليبي، فقد ساندتها السلطة السياسية العسكرية المتمثلة في شخص نور الدين محمود، والتي اعتمد عليها كقاعدة استند عليها في صراعه الطويل مع الصليبين.

إن تحالف العلماء مع القادة السياسيين العسكريين، كتحالف ابن عساكر ونور الدين خير مثال

(١) سنن سعيد بن منصور رقم ٢٤١٤ قال الترمذي: حسن صحيح.
(٢) البخاري رقم ٢٨٩٢.
(٣) البخاري رقم ٢٨٥٣.
(٤) البخاري رقم ٢٨٨٧.
(٥) صححه الحاكم (٨٦/٢) ووافقه الذهبي.
(٦) حديث موضوع فيه عبد العزيز بن عبدالرحمن البالسي المجروحين (١٣٩/٢).
(٧) إسناده ضعيف، عطاء بن السائب اختلط التاريخ الكبير (٦٣/٣).

على أهمية وحدة الصف في مواجهة الأخطار الداخلية والخارجية ضد الإسلام والمسلمين [١].

٢ – تأليف ابن عساكر فضائل المدن:

ووجد ابن عساكر أن استمرارية الغزو الصليبي للشرق الإسلامي لابد أن تواجهه استمرارية في الجهاد ضده ولذلك أكد على فكرة الجهاد كما برزت الأحاديث التي ذكرها والتي كانت جزءاً من منهجه الجهادي المحرض للمسلمين، وليس ذلك فحسب وإنما أيضاً من خلال تأكيده على فضائل المدن الإسلامية داعياً المسلمين إلى استعادتها والدفاع عنها، حيث ألف العديد من الكتب التي تشيد بذلك منها (فضائل القدس) و(فضائل عسقلان) و(فضائل المدن الإسلامية) و(الزهادة في بذل الشهادة)، وغيرها من الكتب التراثية العديدة التي تشير إلى مدى تركيزه واهتمامه بذكر فضائل المدن الإسلامية، وتذكير المسلمين لدور تلك المدن في التاريخ الإسلامي التي لابد من التشبث بها والدفاع عنها [٢]، ولم يكن ابن عساكر الوحيد من ألف في فضائل المدن الشامية آنذاك بل اتجه العديد من الفقهاء للتذكير بهذا الجانب مثل (فضائل الشام) للفقيه الحافظ عبد الكريم السمعاني (ت٥٦٢هـ) و(فضائل الشام) للفقيه محمد عبد الواحد منصور السعدي الحنبلي (ت٦٤٣هـ)، وكتاب (ترغيب أهل الإسلام في سكني الشام) للفقيه عز الدين السلمي (ت٦٦٠) وغيرهم الكثير [٣] وذلك لأن الغزو الصليبي كما أشار السلمي وابن عساكر لم يستهدف الإسلام كفرد أو عقيدة، وإنما أيضاً كان يستهدف القضاء على حضارته وتراثه المتكامل، ووجد أولئك الفقهاء أنه خير وسيلة لحفظ تراث تلك المدن الإسلامية، ومكانتها التاريخية من خطر زوالها، ولربما تغيير ملامحها الحضارية من قبل الصليبيين هو التأريخ لها، وتدوين أخبارها [٤].

وبتشجيع من الملك العادل نور الدين محمود تمّ تأليف أكبر مصنف عن تاريخ دمشق، وهو تاريخ مدينة دمشق للحافظ ابن عساكر وقد جاء في مقدمة هذا الكتاب: ورقى خبر جمعي له إلى حضرة الملك القمْقام الكامل العادل الزاهد المجاهد المرابط الهمام، أبي القاسم محمود بن زنكي بن آق سنقر ناصر الإمام... وبلغني تشوقه إلى الاستنجاز والاستتمام ليلمّ بمطالعة ما تيسر منه بعض الإلمام، فراجعت العمل فيه راجياً الظفر بالتمام، شاكراً لما ظهر منه من حسن الاهتمام [٥] مما يوضح للباحث حرص نور الدين محمود على الاطلاع على تاريخ عاصمته (دمشق) وتشوقه إلى ذلك، كما أنه يؤرخ لنا زمن تصنيف ابن عساكر لهذا الكتاب، ويعد هذا العمل من الآثار العلمية

(١) موقف فقهاء الشام وقضاتها ص ١٠٨.
(٢) موقف فقهاء الشام وقضاتها ص ١٠٨.
(٣) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (٣٩٩/٢).
(٤) موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي ص ١٠٨.
(٥) تاريخ مدينة دمشق في المقدمة ص ٤.

المجيدة التي تبناها نور الدين محمود [١] وبذلك كان ابن عساكر أحد أولئك الذين استخدموا التراث كوسيلة لتحريض البلاد الإسلامية للوقوف في وجه الخطر الذي يحيق بها، فقد استخدم التاريخ والأدب مع فكرة الجهاد، كمنهج متكامل من أجل بعث الحياة الثقافية في بلاد الشام التي أثقلها الضعف والصراع السياسي والديني [٢].

٣ – ابن عساكر يحث نور الدين على مواصلة الجهاد:

عرف عن ابن عساكر تدينه وتعففه واعتكافه وبعده عن إغراءات الدنيا وعزوفه عن المناصب، بالإضافة إلى اعتداده بمكانة العلماء ودورهم الثقافي والسياسي، فلم يتردد ابن عساكر في مخاطبة نور الدين بعد أن أعفى الأخير أهل دمشق من المطالبة بالخشب وبعد فتح مصر في أن يوجه السلطان قصيدة يوجهه فيها إلى ما يجب أن يفعله في المستقبل فيقول:

لما سمحت لأهل الشام بالخشب	:::	عوضت مصر بما فيها من النشب
وإن بذلت لفتح القدس محتسباً	:::	للأجر جوزيت أجراً غير محتسب
والأجر في ذاك عند الله مرتقب	:::	فيما يثيب عليه خير مرتقب
والذكر بالخير بين الناس تكسبه	:::	خير من الفضة البيضاء والذهب
ولست تعذر في ترك الجهاد	:::	وقد أصبحت تملك من مصر إلى حلب
وصاحب الموصل الفيحاء ممتثل	:::	لما تريد فبادر فجأة النوب
فأحزم الناس من قوى عزيمته	:::	حتى ينال بها العالي من الرتب
وقد بلغت بحمد الله منزلة	:::	عِلِيّةً فاقصد العالي من القرب
فالجد والجد مقرونان في قرن	:::	والحزم في العزم والإدراك في الطلب
وطهر المسجد الأقصى وحوزته	:::	من النجاسات والإشراك والصلب
عساك تظفر في الدنيا بحسن ثنا	:::	وفي القيامة تلقى حسن منقلب [٣]

كان نور الدين محمود قائداً متميزاً يملك نظرة قيادية إستراتيجية في بناء الدولة فقد جعلها قادرة على تحمل أعباء الجهاد والتحرير، فبمجرد مجيئه للحكم، بدأ ببناء الدولة من جميع جوانبها الإدارية والعمرانية والثقافية والسياسية، فقد كانت مداركه الحضارية واسعة فأقام صروحاً كبيرة فبنى المستشفيات وأقام دار العدل واهتم بالحياة الثقافية وتنشيطها ومن هنا كان اللقاء بين الحافظ ابن عساكر والقائد نور الدين [٤] واهتم نور الدين بالبناء الداخلي وكان العلماء عوناً له على ذلك واستطاع أن ينقل نور الدين الموقف بالنسبة للحرب في مواجهة الصليبيين من موقف الدفاع إلى موقف الهجوم حتى إنه بدأ يعد العدة لخوض المعركة الفاصلة معهم فعمل أولاً على أن يحول دون سيطرتهم على مصر، فعندما أيقن الصليبيون أن وجودهم أصبح مهدداً، فتوجهوا بأنظارهم صوب مصر وهيأوا لذلك، فأدرك القائد نور الدين ذلك، فتدخل على هذه الجبهة بنظرة إستراتيجية وأرسل

(١) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٧٩.
(٢) موقف فقهاء الشام وقضاتها ص ١٠٩.
(٣) الخريد للعماد الأصفهاني (٢٧٧/١) ابن عساكر ودوره في الجهاد ضد الصليبيين ص ٥٣.
(٤) ابن عساكر ودوره في الجهاد ضد الصليبيين ص ٤٦.

ثلاث حملات متواليات تمكنت من إحباط خططهم وإنهاء الوضع المتردي في مصر ومن ثم إسقاط الدولة الفاطمية وتوحيدها مع الشام - كما سيأتي بيانه بإذن الله تعالى.

وكان ابن عساكر في هذه الفترة مواكباً لنور الدين ومحفزاً لـه وداعياً للجهاد والتحرير، وكان يقول داعياً للوحدة: لم يمكن الله أهل فرقة على جماعة أبداً [١]، وخطط نور الدين لجولة فاصلة مع الصليبيين تستخدم فيها طاقات الشام والجزيرة ومصر، والمغرب، وبلاد إسلامية أخرى، وبات متيقناً بالنصر، وتسامع الناس أخبار ثقته بالنصر، فقد كان لنور الدين نجاراً بحلب يعرف بالأختريني من ضيعة قريبة من حلب تعرف (بأخترين) اشتهر ببراعته ودقة صنعته التي لا تجارى فأمره أن يصنع منبراً لبيت الله المقدس، ولبى الرجل ما ندب لـه، وبذل النجارون، الصناع في صناعته سنين وأبدعوا في تركيبه الإحكام والتزيين [٢]، واستطاع نور الدين من خلال وسائله وخططه وتواصله مع العلماء أن يقلب موازين الصراع لصلاحه، فالمعارك قبل نور الدين كانت تخوضها قوات محترفة تابعة للحكام المسلمين، ومُنذ أيام نور الدين بدأ عنصر المتطوعة يكثر ويندفع في المعارك، وباتت مع الأيام أعداد المتطوعة أكبر من أعداد الجند المحترفة، وكان ذلك كله نتيجة تعبئة مشاعر الناس وتحريضهم على الجهاد، وندبهم إلى حمل السلاح وهو ما كان يتولاه الولاة والوعاظ، ويأتي ابن عساكر كبير علماء الشام ومحدثها الأول في مقدمة هؤلاء. وفي هذا المجال لابد من ملاحظة هامة وهي أن المتطوعة لم يقتصروا على سكان العراق وبلاد الشام، أو مصر بل تعداه إلى سكان المغرب والأندلس، فلقد كان المغاربة يأتون للجهاد والحج فيجاهدون ويحجون أو يحجون ويجاهدون، أو يجاهدون وتكتب لهم الشهادة، وكلنا يعلم أن أحد أهم أحياء دمشق هو حي (المغاربة) الذي يعود إنشاؤه إلى تلك المرحلة[٣]، ولقد تحدث عن المغاربة والأندلسيين ومشاركتهم في الجهاد ضد الصليبيين والعلاقات الثقافية والفكرية بين المغرب والأندلس وبين بلاد الشام والتأثيرات الفكرية بين العلماء، عدد من مؤرخي تلك الفترة وما بعدهم منهم ياقوت الحموي في معجم البلدا، وابن العماد في شذرات الذهب، وابن جبير في رحلته، والمقرى في نفح الطيب، ومحمد بن عبد الملك المراكشي في الذيل والتكملة والسبكي في الطبقات، وكذلك ابن سعيد المغربي في المغرب في حلي المغرب وينقل عنه المقري، كما ترجم ابن عساكر لعديد من العلماء والقراء والشعراء المغاربة والأندلسيين الذين قدموا إلى دمشق [٤].

٤ – وفاة ابن عساكر:

توفي ابن عساكر - رحمه الله - في رجب سنة إحدى وسبعين وخمس مئة ليلة الاثنين، حادي عشر الشهر، وصلى عليه القطب النيسابوري، وحضره السلطان صلاح الدين ودفن عند أبيه في

(١) المصدر نفسه ص ٤٨.
(٢) كتاب الروضتين نقلا عن دوره في الجهاد ضد الصليبيين ص ٤٨.
(٣) ابن عساكر ودوره في الجهاد ضد الصليبيين ص ٤٨.
(٤) المصدر نفسه ص ٤٨.

مقبرة باب الصغير [١].

رحم الله ابن عساكر فقد كان لـه دور هام في إيجاد صحوة إسلامية ساعدت بدورها في تدعيم المواجهة الأيديولوجية مع الصليبيين وقد تمكن نور الدين بفضل الله ثم جهود العلماء والمخلصين من أبناء الأمة بإعداد جبهة واحدة متماسكة عقائديا، على نحو أدى في النهاية إلى تدعيم فكرة الجهاد الإسلامي في ذلك العصر، ولا نزاع في أن الدولة النورية قد نجحت في تحقيق أهدافها بصورة كبيرة ودل ذلك على إدراكها لأهمية العوامل العقائدية والفكرية في إيجاد كيان داخلي متماسك في مواجهة الغزو الصليبي[٢].

* * *

(١) موارد ابن عساكر في تاريخ دمشق ص ٧٠.
(٢) فن الصراع الإسلامي - الصليبي ص ٢٧٦، ٢٧٧.